الأمير

نيكولو ميكيافيلي

اسم الكتـــاب: الأمير
تـأليـــــــف: نيكولو ميكياڤيلي
ترجمة: هشام عيد
تدقيق لغوي: محمد إمام
تصميم داخلي: سالم عبدالمعز سواح
النـاشـــــر: دار الزيات للنشر والتوزيع

القـطـــــع: 14*20
سنـة النشـر: 2024
غلاف: يوسف إمام

تم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية برقم: 30099 / 2024
الترقيم الدولي (ISBN): 978 - 977 - 844 - 577 - 0

دار الزيات للنشر والتوزيع
المشهرة قانونًا بسجل تجاري رقم/ ٤٩٣٥١

ت: ٠١٠٦٦٧٣٦٧٦٥ - ٠١٠١٥٧٦٦٠١٤ / shahnda71@gmail.com

ISBN 978-977-844-577-0

الأمير

رسالة في فن الحكم

تأليف

نيكولو ميكيافيلي

ترجمة

هشام عيد

مقدمة المترجم

هذا كتاب سيئ السمعة، مُنع لمدة قرنين في أوربا وأُحرقت نسخه. لكنه رغم ذلك شديد الأهمية، إذ يجرد الفكر السياسي من أية اعتبارات أخرى، أخلاقية كانت أو مثالية. وآخر ما يشغل ذهن مؤلفه الحرية والفردية وحقوق المواطن. ليس معنى ذلك أنه يبرر الاستبداد؛ الحقيقة أنه لم يعن بالمواطن كثيرًا، بل الوطن. وفي ظني، أن الوطن هنا ليس لفظًا يشمل عموم الأوطان، بل وطن ميكيافيلي بالتحديد، فلورانسا.

وأغلب الظن أن ميكيافيلي لم يكتب هذا الكتاب لينشره ويرقى به مراقي المؤلفين، كل ما عناه أن يقدم رؤية واقعية آنية يحفظ بها الإمارة، ويحافظ بها الأمير على الإمارة -متخذًا في سبيل ذلك ما يشاء من الوسائل- وليضمن هو لنفسه وظيفة المرشد الأمين للأمير، كما كان مرشدًا وعاملًا لمن قبله. لذا لا تقيِّم الكتاب بميزان زخرف الكلمة والجملة الباهرة، بل بالحكمة المرعبة التي استُخدمت عبر الأزمان، ولا يأخذك الظن أن تلك السياسة لم تكن موجودة من قبله، ولا أنها لم تطل برأسها من بعده. لكن مفكرنا هو أول وآخر من امتلك جسارة وضعها في بيان.

كل هذه ظنون. والأمير منذ ظهوره لا يخضع سوى للظنون تقريبًا. وقد بلغت به السمعة السيئة أن لقب صاحبه من أندر الأسماء التي يمكن أن تجدها في أوربا...

لن أطيل عليك قارئي في المقدمة، فنحن مقبلان على وجبة سياسية تستحق الانتباه. لكننا بحاجة إلى نبذة تاريخية يسيرة عن الإطار السياسي الذي خرج فيه هذا الكتاب.

چيوفاني دي مديتشي

حكمت عائلة مديتشي فلورانس لأكثر من قرن من الزمان، وهي العائلة التي غيرت وجه التاريخ الأوربي في عصر النهضة. بدأت العائلة بافتتاح متجر حربي ثم أنشأت أول بنك في التاريخ، حيث كان چيوفاني مديتشي يحفظ الثروات لأغنياء عصره مقابل ورقة اعتبرت أول اعتماد نقدي في التاريخ؛ الأثرياء المتورطون بثرواتهم المكدسة يبحثون عن مكان آمن لحفظها وجدوا في هذه الورقة بديلًا سحريًّا وحلًا عبقريًا. كان هذا أول تحول إلى العملة الورقية في أوربا. ثم أصبح مسؤولًا عن الأموال الخاصة بالكنيسة، ثم اخترع تجارة بيع صكوك الغفران فأثرى نفسه وأثرى الكنيسة وصار منجم الذهب بالنسبة للبابا.

وهكذا وصل چيوفاني دي مديتشي إلى السلطة بطريقة تدريجية بفضل ثروته الهائلة ونفوذه المصرفي، متمتعًا بدعم شعبي جارف بسبب سخائه، كما حظي بدعم الفنانين والأدباء ذوي التأثير في عصر

النهضة نتيجة اهتمام العائلة بالفن والفنانين، حتى أن جاليليو كان يسمي النجوم التي يكتشفها باسم أفراد العائلة. وتم في عهدهم بناء قبة كاتدرائية فلورنس التي قيل إنها تلامس السماء. ومن هذه العائلة خرج لورينزو الرائع[1] صديق الشعب وأديبه المحبوب راعي المثقفين، وعلى رأسهم مايكل أنجلو وليوناردو دافنشي.

كان لورينزو نموذجًا للأمير النهضوي الجامع لفنون الحكم والاقتصاد والفن، كما وازن بين مختلف القوى الإيطالية حتى سُمي "إبرة ميزان إيطاليا". قالت عنه كاتيرنا سيفورزا حين مات: "إن مثل هذا الرجل لا يتكرر أبدًا."

ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا حب الشعب وأظهروا الفساد ولم يهتموا إلا بأنفسهم، واكتشف الناس أنهم يصدرون اعتمادات مالية دون غطاء ذهبي فثاروا عليهم وبدأت مرحلة الانهيار .

[1] لورينزو دي دي بييرو مديتشي ١٤٩٢-١٤٤٩.

جيرولامو سافونارولا[1]

وفي عام ١٤٩٤ أطاحت ثورة شعبية عارمة بعائلة مديتشي في فلورانس نتيجة الفساد المتزايد. تلك الثورة كانت جزءًا من حركة أوسع تأثرت بالأفكار الإنسانية والشعوبية التي سادت في عصر النهضة.

قاد تلك الثورة رجل دين هو الراهب سافونارولا، الخطيب المفوَّه الذي جمع مؤيديه بوعود دينية ورؤى أخلاقية استقطب بها المؤيدين والمضطهدين فقلبوا نظام الحكم. ففرت عائلة مديتشي في بقاع الأرض وتحولت فلورانس إلى جمهورية .

وما إن سيطر رجال سافونارولا على المدينة حتى أطلقوا حملة على الفنون باعتبارها غير أخلاقية وأحرقوا العديد من الكتب واللوحات العظيمة، ودعوا إلى التوبة والتطهير والتخلص من الزينة والزخارف وتحولت فلورانس إلى جمهورية ثيوقراطية متشددة.

وكالعادة، أدت السياسة المتزمتة لنفس ما تؤدي إليه السياسة الفاسدة فانتهى صاحبها إلى النهاية المأساوية المعهودة، ففقد سافونارولا شعبيته تدريجيًّا خلال أربع سنوات، واحتدم الصراع بينه وبين الكنيسة فاتهمه البابا بالهرطقة والفكر المتطرف فتم اعتقاله وحُكم عليه بالإعدام شنقًا وحرقًا. وما زال الناس إلى يومنا

[1] ولد في فيرارا عام ١٤٥٢. بدأ بدراسة الطب، وسرعان ما انجذب إلى الحياة الدينية.

هذا حائرين في أمره، فالبعض يراه مصلحًا دينيًا حقيقيًا، بينما تراه الأغلبية دجالًا متطرفًا لم يبتغ سوى السلطة.

ورغم انتهاء فترة حكمه بتلك المأساة، لم تسترد عائلة مديتشي الحكم حتى تلك اللحظة.

في خضم هذه الفوضى السياسية ولد نيكولو ميكياڤيلي عام ١٤٦٩، فشهد في شبابه فترة من الحكم الملكي لآل مديتشي وشهد الانقلاب عليهم وتبدل الحكم لصالح الجمهوريين من بعدهم.

بيير سوديريني

عندما انتُخِب سوديريني في عام ١٥٠٢، كان ميكياڤيلي أحد أكثر مساعديه ثقة. حيث عمل كدبلوماسي في خدمته، وقام بمهام دبلوماسية خاصة مبديًا في العمل السياسي والتفاوض براعة ملفتة، فمنحه سوديريني ثقته الكاملة، لدرجة أنه سمح له بوضع الخطط والتشكيلات العسكرية في المعارك.

أخلص ميكياڤيلي في خدمته طوال فترة حكمه التي امتدت عشرة أعوام، فأضاف لخبرته التي ابتدأت قبل ذلك بأعوام خبرة الحكم وفنونه. وكان لسوديريني تأثير كبير على أفكار ميكياڤيلي، حيث شهد عن كثب الصعوبات التي يواجهها الحاكم في الحفاظ على استقرار الجمهورية، مما ألهم ميكياڤيلي للتفكير بعمق في طبيعة السلطة والحكم.

ثم سقط سوديريني في موقعة براتو. كان ذلك في التاسع والعشرين من أغسطس عام ١٥١٢. وكان لاقتراحات ميكيافيلي العسكرية دخل كبير في سقوطه.

ثم استسلم سوديريني بعد موقعة براتو وعوقب بالنفي. واستعاد آل مديتشي السيطرة على فلورانس بعد غياب دام ثمانية عشر عامًا .

وحوكم ميكيافيلي بالطبع باعتباره أهم أعوان سوديريني ومصمم سياساته ومدبر تدريبات جنوده، لكن عائلة مديتشي اكتفت باعتقاله وتعذيبه لفترة وجيزة ثم نُفي من المدينة لمدة عام واحد.

وهكذا انتهى الحال بفيلسوفنا عاطلًا يجتر أمجاده. ولم يجد إلا الحظيرة المتواضعة التي ورثها عن والده بالقرب من سان كاسيانو ليعمل فيها باحثًا عن قوت يومه هو وزوجته وأبناؤه[١]، منفقًا معظم وقته بين روث البهائم، ونصفه الآخر متفرغًا للبحث والكتابة. غير أن حلم العودة إلى المعترك السياسي لم يفارقه.

وفي مزرعته، عكف ميكيافيلي على كتابة الأمير، أملًا في التقرب به إلى الوريث الجديد لعائلة مديتشي. وضع في كتابه أفكار رجل شهد ارتفاع الدنيا وحطامها، وخبر شهد السلطة وسياطها، حدثه عن النجاح كهدف وحيد لا يجب النظر إلى ما سواه، وبلغ به الشطط

أنجب ميكيافيلي من زوجته عدة أبناء وبنات، ولكن أسماءهم الدقيقة ومسارات حياتهم غير معروفة بشكل جيد.

أن يكاد ينصحه بقتل أبنائه هو نفسه إذا تطلب الأمر، ثم شعر بعلو الموجة فحاول ترقيق قلب الأمير باكتساب حب الرعية.

لم يقصد الكاتب إذن إلا أميرًا واحدًا، لكن الكتاب كمن في بواطن التاريخ حتى التقطه كل ذو غاية موافقة، ثم بزغ محاولًا أن يؤصل نظرية سياسية يحتكم إليها الطغاة. ولم يكن همُّ صاحبه كما أسلفنا –ظنًا- أن يحظى بمكانة بين الفلاسفة أو أن يكون الكتاب منشورًا، لذا فقد اضطرب السرد أحيانًا ودار في فراغ، ارتفع وانخفض ورق وقسا وقصر وأُسهب، وتعطرت أوراقه أحيانًا بعطر الحكمة، وامتلأت السطور في كثير من الأحيان برائحة الجور والروث. قدم نفسه أحيانًا كمفكر يعمل في الظل، وأحيانًا كخبير عسكري في ميدان القتال، ومدبر خطط إذا لزم الأمر. تشعر في بعض الأحيان أن الكلمات مصحوبة بنظرة عين متسعة يوشك أن يخرج منها الشرر، أو بإصبع بنصر مرفوعة تؤكد النصيحة بحسم. ولعله كان يبشر زوجته كل ليلة أن هذا هو المخطوط الذي سيعيدهم من الحظيرة إلى القصور. ولا شك أنه عانى أيضًا لحظة القهر المظلمة حين ظن أن الكتاب قد لا يصل إلى الأمير، أو أنه لن يقرأه؛ فما كاتبه في النهاية إلا عامل لحاكم سابق يريد أن يثبت أن عودته ذات فائدة.

كان أمله الكبير الذي ناضل وأحرق زيت قنديله فيه هو استعادة منصبه في المجال الذي ظن أنه خُلق من أجله؛ السياسة، "الطعام الذي يحب أن يأكله".

فهل استطاع ميكياڤيلي أن يصل بكتابه إلى لورينزو دي مديتشي؟ وهل قرأ الأمير الأمير؟

هذا ما سأجيبك عنه في نهاية الرحلة. وما ستجيب عنه بنفسك حسب رؤاك.

هشام عيد

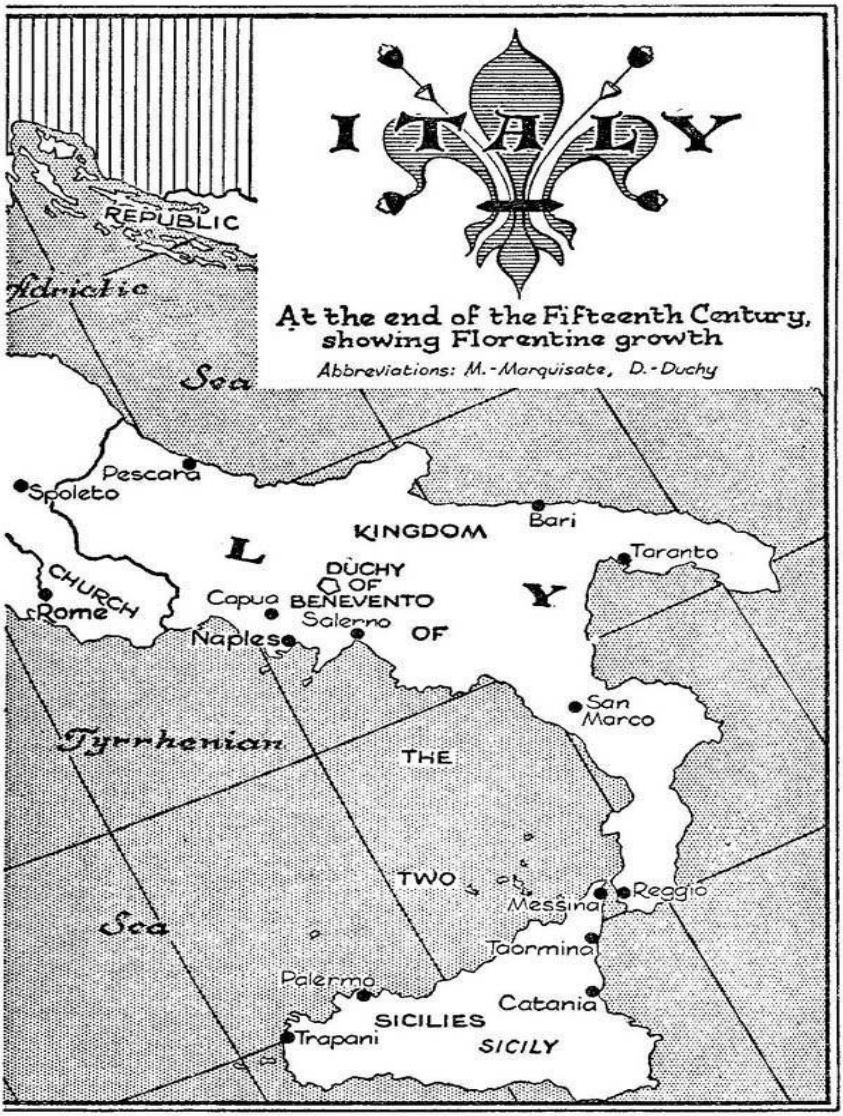
ITALY
At the end of the Fifteenth Century, showing Florentine growth
Abbreviations: M.-Marquisate, D.-Duchy
REPUBLIC
Adriatic
Sea
Pescara
Spoleto
KINGDOM
Bari
Taranto
CHURCH
Rome
DUCHY OF BENEVENTO
Capua
Salerno
Naples
OF
San Marco
Tyrrhenian
THE
TWO
Messina
Reggio
Sea
Taormina
Palermo
Catania
SICILIES
Trapani
SICILY

VENETIAN
Venice
Padua
Verona
Adige
M. OF
MANTUA
DUCHY OF
FERRARA
DUCHY
Milan
Mantua
Po
Ferrara
REP. OF
SAN
MARINO
Aosta
OF
Parma
Modena
STATES
Rimini
M. OF
MONTSERRAT
Po
MILAN
D. OF
MODENA
Turin
DUCHY
Genoa
GENOA
Florence
OF
Assisi
REP. OF LUCCA
Pisa
OF
REP. OF
REPUBLIC
OF FLORENCE
Siena
REP.
OF
SIENA
THE
Tiber
M. OF
SALUZZO
SAVOY
Monaco
Nice
ELBA
CORSICA
(To Genoa)
Barga
Firenzuola
Sarzana
Motrone
Pistoia
Pisa
Florence
Arno
Arezzo
Florence - 1300
Florentine
Acquisitions
1300 to 1377
1377 to 1433
1433 to 1494
Protected
states
SARDINIA
(To Spain)
Piombino
ELBA

إهداء

هذا كتاب المخلص الفقير نيكولو دي برناردو ميكياڤيلي إلى السيد الأمير لورينزو مديتشي الثاني:

الذين يملكون الذهب والفضة يمكنهم تقديم هدية تليق بالأمير لكسب وده وبعث السرور في نفسه، أولئك يستطيعون إهداءه الخيول المُطهمة، والثياب المطرزة والأحجار الثمينة، وأمثال ذلك من النفائس التي تليق بعظمة المُهدَى إليه .

أمّا أنا، خادمك الفقير، فأريد أن أقدِّم شيئًا يوازي قدر عظمتك في نفسي، رغم تواضعي وبؤسي، وليس أقل من علمي ونفسي؛ حيث لا أملك شيئًا أثمن من معرفتي ودرسي، وهي معرفة أنفقت عمري في اكتسابها وبذلت جهدي في توثيقها، تعلمتها من خبرة طويلة في الشؤون الحاضرة، ودراسة الأزمنة الغابرة، وقراءة متواترة، وصحبة الأمراء، والاطلاع على أحوال العظماء، وتحليلٍ متأنٍ لما سطره القدماء. وقد جمعت كل هذا في كتاب متواضع صغير، أضعه بين يدي جلالتكم. وإني، وإن كنت أرى عملي هذا ضئيلًا أمام عظمتكم، إلا أني واثق من تكرمكم بقبوله، وتفضلكم بالنظر إلى سطوره، ففيه يا سيدي علم حصلته وخطر حذرت منه وكل ما توصلت إليه من معرفة بفن الحكم. وأنا على هذا لست ممن يستطيعون تزيين كتابتهم بالعبارات المفخمة والبلاغة المنمقة ولا بأي زخارف يلجأ

إليها الكتبة، فقد اخترت أن تكون قوتها في خطورة مادتها وأهمية موضوعاتها، ولا أريد أن يُظن أن رجلًا من العامة يجرؤ على التفكير في وضع قواعد للأمراء لأنه أبلغ منهم، بل لأنه حريص على البلوغ بهم أعلى المراتب. وكما أن رسام المناظر الطبيعية يذهب إلى السهول والتلال ليحسن رسمه، فكذلك يجدر بالأمير أن يفهم طبيعة الإمارة، فالواقفون على القمم أشمل رؤية وأقدر على الفحص والدراية. وليس أفهم للناس من الأمير ولا أعلى مكانة من مكانته. لذلك، إذا نظر صاحب السمو من مقامه العظيم إلى مكانتي الخاضعة ونظر في كتابتي المتواضعة فسيرى أعمق رغباتي وأمنية حياتي، وهي أن تبلغ غاية العظمة التي أهّلتك لها قدراتك الخاصة، وسترى من مقامك الرفيع ما تحمله العبد الفقير لكي يصل إليك بخلاصة معرفته وعمق تجربته.

١

تأسيس الإمارات وطرق حكمها

الدول نوعان: جمهورية أو إمارة، لا سبيل إلى ممارسة السلطة والسيطرة على الشعوب غيرهما. فأما الأولى فيحكمها الشعب من خلال ممثليه. وأما الثانية فيحكمها فرد واحد هو الأمير. والأخير هو من أعنيه بكتابي، وأحيده من خطئه بصوابي. والإمارة إما أن تكون وراثية، تحكمها أسرة منذ زمن أبعد ثم تصل إلى أميرنا المنشود، وقد تكون مكتسبة جديدة، نشأت على يديه، مثلما حدث مع ميلان بالنسبة لفرانشيسكو سفورزا. والإمارة المكتسبة حديثًا هي الأكثر تحديًا وصعوبة في حكمها وفي الحفاظ عليها، ذلك لأنها تحتاج إلى جهود أكبر لتثبيت أركانها وتأمين حدودها وكسب ولاء الشعب.

وقد يضيف الأمير إلى مملكته فتوحات جديدة بقدراته الخاصة كما كانت نابولي مركزًا لغزوات ملك أسبانيا. هذه الإضافات تحديدًا تُكتسب بالقوة، وربما بالهيمنة عليها بدلًا من أمير آخر، أو تؤول إليه من بعد عهود وخلافة.. وربما ساقها القدر إليه سوقًا .

أنفِق الوقت والمال لتجهيز جيشك، واشغل البال طوال الوقت بصيانة مملكتك،

أما الوسائل، فلا تتوقف كثيرًا عندها.. فكل الوسائل متاحة.

٢

الإمارات الموروثة

سنستبعد الجمهوريات من حديثنا، فلقد ناقشتها بالتفصيل في مواضع أخرى وليست هي غرض بحثي هنا، إنما هدفي الإمارات، كيفية حكمها وخطط الحفاظ عليها .

والرأي عندي إن الحكم الوراثي أسهل في الحفاظ عليه من الدول المستحدثة، فكل ما على الأمير حينها أن يسير على طريقة أسلافه، وأن يثبت جدارته إذا حدثت أمور غير متوقعة. حتى لو كانت قدرات الأمير عادية فسوف يحتفظ بدولته، ما لم تحرمه من ذلك استثناءات قاهرة كأن يهزمه حاكم جديد.. وفي تلك الحالة أيضًا تظل فرصة العودة قائمة عند أدنى محنة يواجهها هذا الفاتح.

والمثال على ما أقول –وهو أن امتداد الحكم في أسرة يجعل الأمر سهلًا- هنا بين أيدينا في إيطاليا، فقد استطاع الدوق فيرارا صد هجمات البنادقة في عام ١٤٨٤، ثم صد غارات البابا يوليوس بعد ذلك بعشرين عامًا بفضل ثباته على الحكم وقدم العهد بأسرته على العرش. فضلًا عن صلاح سيرته مع شعبه، فالناس، يا مولاي، لا ترغب أبدًا في التخلص من حاكم يحسن فيهم السيرة ويقيم العدل، حتى لو كانت له رذائل طفيفة، يغفرونها ويتجاهلونها، فإن الناس قد جبلوا على تحمل ما يألفونه من حكم طويل متصل، خيرًا من تغيير قد يقلب الأحوال إلى الأسوأ.

اقتحم ما شئت من أراضٍ. ليس هذا هو الشيء

المهم فقط،

فالأصعب هو الحفاظ عليها.

٣

الإمارات المختلطة

الإمارة المختلطة هي إمارة تتشكل من خلال الجمع بين إقليم قائم وآخر مكتسب حديثًا بالتوسع أو الغزو وخلافه. وسوف نسلط الضوء على الصعوبات المتأصلة في حكم مثل هذه الإمارات، وهي صعوبات ناجمة في المقام الأول من استياء الناس في الإقليم المكتسب حديثًا من الحاكم الجديد. ومن هنا تكمن التحديات الأولى في حكمها والحفاظ عليها.

***

قد يأمل البعض أن يعمل الحاكم الجديد على تحسين أحوالهم. ولكن غالبًا ما يفرض ذلك الحاكم صعوبات على شعب الأراضي المكتسبة حديثًا، بغرض السيطرة أو الردع أو استخراج المخبوء من الموارد، وهذا بالطبع سيؤدي بهم إلى الاستياء والتمرد. وقد ثبت بشكل غالب أن توقعات التحسن والازدهار من خلال التغيير كاذبة .

الحقيقة التي أثبتها التاريخ دائمًا هي أن الحاكم الجديد يزيد الأمور سوءًا، لأن وجود جنوده وبسبب إساءات لا تعد ولا تحصى تتبع الغزو، فمن الطبيعي أن يكون مزعجًا للمحكومين الجدد. وأن يكون له أعداءٌ ممن يعشقون بلادهم، ومن تعرضوا للإصابات أثناء

المعارك، وسيستحيل عليه الحفاظ على ولاء من ساعدوه للوصول إلى الحكم، فهم سينتظرون منه جوائز لن يمنحهم إياها، ورضًا لن يستطيع توفيره، وسيكتنفه دومًا شعور بأنه مدين لهم. لمثل هذه الأسباب احتل الملك لويس الثاني ميلانو ثم لم يلبث أن خسرها بسرعة. انتزعها منه لودفيكو، لأن الذين فتحوا الأبواب للملك وجدوا كل توقعاتهم مخطئة فلم يتحملوا بقاءه على العرش فمكنوا الدوق لودفيكو من استعادتها سريعًا.

فإذا تمرد قومٌ على أميرهم فخلعوه ثم استطاع أن يسترد ملكه، فإن الحفاظ عليه سيكون أسهل، لأن "الشاطر لن يقع في الخطأ مرتين"، فالحاكم الذي يستخدم التمرد كذريعة لن يتورع عن معاقبة المنشقين والحرص من الآخرين والقضاء على المحتملين وتعزيز موقفه بكافة الطرق. ومثال ذلك أن ملك فرنسا خسر ميلانو في المرة الأولى بمجرد تهديد من لودفيكو، لكنه عندما استعادها، تطلب خلعه تحالف العديد من البلدان وهزيمة عسكرية بصعوبة. وما دمنا قد وصلنا إلى هذه النقطة، وذكرنا الأسباب التي أدت إلى خسارته الأولى، فعلينا الآن أن نتحدث عن صعوبة هزيمته الثانية، وأن نفكر في الوسائل التي استخدمها ملك فرنسا، والوسائل التي أغفلها، وما يجب أن يفعله الحاكم للحفاظ على نتائج غزوه.

وهنا أقول إن البلاد التي تم غزوها واحتلالها منذ أمد طويل إذا استطاع الأمير أن يتحدث لغتهم وانتمي إلى الطباع ذاتها التي ينتمون إليها، فسيسهل عليه السيطرة عليها، خاصة إذا كان طول الاحتلال

قاضيًا على الرغبة في الحرية. وللحفاظ عليها لا بد من إبادة سلالة الأمراء الذين حكموها سابقًا، والحفاظ دائمًا على حالتها الخانعة، عندها سينعم بالهدوء. وذلك هو ما حدث في إمارات بورغندي وبريتاني وجاسكوني ونورماندي، فقد ظلت خاضعة لفرنسا لعهد طويل بهذه الطريقة، تثبيت الحال بإزالة الاحتمال؛ فأمكن للناس أن يتعايشوا في سهولة رغم اختلاف اللغة. والقاعدة الذهبية لكل من احتل أرضًا جديدة تتمثل في أمرين: القضاء على الأسرة الحاكمة بنسلها وذراريها واجتثاث فروعها، مصحوبًا بوأد كل صوت معارض، وعدم فرض ضرائب جديدة أو تغيير الثوابت التي يعيش الناس عليها. هنا تتحقق النتائج في وقت قصير لتصبح واحدة من الممتلكات الأصلية للفاتح .

أما إذا كانت الإمارة المحتلة مختلفة اللغة والعادات والقوانين، فإن الصعوبات تكون أكثر، في هذه الحالة نحتاج إلى جهد عظيم وحظ وفير للحفاظ عليها. وأفضل الحلول الجاهزة أن يقيم الحاكم في المستعمرة، هذا من شأنه أن يجعل الحلول سريعة والاستمرارية أضمن. كما فعل السلطان التركي مع اليونان[1]. لو لم يفعل، لما كان باستطاعته أبدًا الحفاظ على هذا البلد، ضمن كل التدابير الأخرى التي اتخذها، فبوجود الحاكم في المستعمرة يمكنه معالجة الاضطرابات في مهدها، عكس بُعد الحاكم، فلن يعرف بها إلا بَعد

[1] فتح محمد الثاني القسطنطينية عام ١٤٥٣م وجعلها عاصمة له.

تشعبها، فضلًا عن ذلك، فلن يترك الأمور في يد مسئولين ربما ينهبونها، كما سيشعر الرعايا الجدد بالرضا من سهولة التواصل مع الأمير، وبالتالي يمكن تعضيد أسباب محبته في حالة كونهم مسالمين، الرهبة منه إذا اختاروا المشاغبة، وقد لا يجرؤ غاز أو عدو أجنبي على التفكير في مثل هذه الإمارة، لأن الأمير المقيم أشد رهبة وأصعب هزيمة من الأمير البعيد.

وإذا لم تكن للأمير إمارة أصيلة فعليه أن يقيم في المستعمرة الجديدة، هذا سيوفر عليه الكثير من الأخطار.

والحل الثاني أن يقيم قاعدة عسكرية أو قاعدتين متأهبتين لتقييد المستعمرات إذا لزم الأمر، والاحتفاظ بكتيبة أو كتيبتين مجهزتين من الفرسان والمشاة. لن تكون التكلفة كبيرة، ولربما كانت من دماء المستعمرة ذاتها. ولا مانع أيضًا من إلحاق الضرر ببعض الذين نستولي على بيوتهم ومزارعهم، تلك تكلفة ضئيلة جدًّا، وعلينا أن نضمن أن هذه الفئة من المستضعفين لن تسبب لنا المتاعب، ولا بد من سياستهم –بالترهيب أو الترغيب- لكي يظلوا مسالمين في قبضة اليد. أؤكد لك أنهم سيكونون كذلك، لأنهم سيخشون أن يحدث لهم ما حدث لغيرهم، بل سيكونون مخلصين للغاية، لن يجرؤوا على الرد طالما ظلوا تحت الضغط ومتفرقين. مع احتمالية ضئيلة لقليل من المناوشات.. خلاصة الأمر يا سيدي أن الرجال إما أن ينصاعوا أو يُبادوا. وإذا ظلوا في حالة خوف، سيعتبرون كل مضرة بسيطة مقارنة بأضرار أخرى ولن يجنحوا إلى الانتقام أبدًا.. أما أنت

يا سيدي، فإذا انتقمت فلا بد من أن يكون انتقامك حاسمًا بحيث لا يدع فرصة لخصمك بالانتقام.

هاتان القاعدتان اللتان أشرنا إليهما سيكونان أقل كلفة من تكريس البلد كله في خدمة المستعمرة، وسيوفران الإنفاق على الجنود وسيجنبانا تحول الجميع إلى أعداء، يجب أن تظل قوة الردع جاهزة. وهي خير من بقاء الجيوش كلها في المستعمرة لتجنب المشاحنات مع أهل المصر.. والأهم أن ثمار المستعمرة ستكون متاحة باستمرار .

والأهم من ذلك، أن الأمير إذا احتل ولاية غير ولايته –كتلك التي وصفناها- فعليه أن يبسط سلطان قوته على ما جاورها من أقاليم، وأن يزرع بذور الخلاف بينهم، وأن يبذل جهده في إضعاف الولايات المجاورة، خشية أن يطمع فيها محتل مواز له في القوة. فالناس يا سيدي إذا سخطوا أو تبرموا فسيقبلون بكل ترحاب محتلًا جديدًا، طامحين أن يرحمهم من ظلم الحاكم القائم.. كما كانت الحال مع الإيتوليين الذين تقبلوا راضين احتلال الرومان لليونان. فما دخل الرومان قرية إلا بإذن أهلها –وقد يكونون هم أنفسهم سبب إضعافها- والقاعدة التي ثبتت دائمًا، أن دخول المحتل القوي إلى الإمارة، يستقطب المستضعفين فيها فيمنحوه ولاءهم، بغضًا فيمن كانوا يحكمونهم. وهكذا –من دون بذل مجهود كبير- يجد الحاكم الجديد نفسه محاطًا بالمؤيدين والداعمين من الوضعاء والوجهاء.. والخونة أيضًا. ومن هؤلاء يجب الحذر فلا يسمح لهم بالوصول إلى

مراكز القوة والمناصب الحاكمة، بل الأولى سرعة القضاء على المتنفذين وإبادة ذوي الشأن في الإمارة الجديدة ليكون هو الحاكم المطلق المتحكم في كل شؤونها، فإن لم يفعل فسوف يعود من حيث جاء بعد أن يواجه في فترة وجيزة من الحكم العديد من المتاعب والصعوبات.

وسوف أفرد لسياسة الرومان في الولايات التي احتلوها وصفًا تفصيليًّا، فقد قدموا نسقًا غير مسبوق، إذ أحكموا القبضة على المستعمرات، وأخمدوا سلطة الأقوياء، واستقطبوا أنصاف الأذكياء والأثرياء، وأبعدوا عن مستعمراتهم المطامع، ولم يسمحوا لأصحاب الطموح بمضاعفة قوتهم، واتخذوا من السكان البسطاء الآخيين والإيتوليين موالين وأنصارًا، من دون أن يسمحوا لأعناقهم أن تشرئب إلى السلطة، كما قضوا على مملكة مقدونيا، ورفضوا إغراءات الأمير فيليب الذي خطب ودهم ناشدًا صداقتهم، وأقصوه عن اليونان[1]. كما لم تعقهم قوة أنطوخيوس عن دحره من اليونان تمامًا.

لقد فعل الرومان كل ما يقتضيه العقل لإحكام السيطرة، لم ينظروا إلى المشكلات الآنية فقط، بل المتوقعة أيضًا، وحتى المشكلات

[1] في عام ١٩٧ قبل الميلاد، هزم الرومان فيليب الخامس المقدوني في معركة سينوسيفالي وأجبروه على الانسحاب من المدن اليونانية التي استولى عليها بعد الحرب المقدونية الأولى.

المحتملة، وتجنبوها بكل الطرق والتدابير الممكنة. أما إذا انتظرنا الاضطراب لمعالجته وقت حدوثه فلربما لم نجد له الدواء المناسب، حيث يمكن ألا يكون قابلًا للشفاء. فالعلة أسهل تشخيصًا وشفاءً في مراحلها الأولى، أما إذا استفحلت، فستكون كالداء الذي يستهين به صاحبه فيفتك به، ولات حين مناص. هذا أمر يعرفه الجميع، لكن لا يلتزم به سوى الحكماء.

وبالمنطق نفسه، لم يتحاشَ الرومان الحروب الضرورية، لأنها لا يمكن تجنبها، لذلك لم يمهلوا فيليب ولا أنطوخيوس، خاضوا الحرب طوعًا قبل أن يخوضوها كراهية، خاصة وأن الوقت لم يكن في صالحهم. لماذا تتجنب الأخطار وفي وسعك إخمادها؟ لم يستمعوا إلى أولئك الحكماء الذين يرون السلامة كلها في السكون، كحكماء الزمن الحاضر. لم ينتظروا ما يسفر عنه التريث، لأن الزمن يلد كل عجيبة، ولأن التأجيل لن يمنع النار التي اضطرمت أن تشتعل أكثر.

ولنعد الآن إلى فرنسا لنرى تطبيق ما قلناه سابقًا، ولنتحدث عن لويس، رغم عدم وجود أصدقاء له فيها. سنرى أنه فعل عكس ما ينبغي للحاكم أن يفعله للاحتفاظ بالسلطة في إمارة مختلفة عن دولته. فقد استنجد به البنادقة ليساعدهم في الحصول على مقاطعة لومبارديا، وكان راغبًا بالأساس في وضع أقدامه في إيطاليا فوجدها فرصة سانحة. وكان بإمكانه الحفاظ عليها لولا أنه ارتكب

أخطاء في الإجراءات، حيث سار نفس السيرة السيئة التي انتهجها سلفه شارل فأدرك البنادقة فداحة الخطأ الذي ارتكبوه إذ استبدلوا بطاغية طاغية أشد طمعًا فاستولى على ثلثي إيطاليا .

لا شك أنه لم يحظ بصديق مثلي، فلو أنه طبق القواعد التي شرحتها لكم، لما ضاعت منه إيطاليا، ألم يكن بوسعه الحفاظ عليها لو أنه اتبع القواعد المبينة أعلاه؟ حماية أصدقائه الخائفين الذين دعوه لدخول المستعمرة –بعضهم كان من الكنيسة- فباحتفاظه بدعمهم كان يمكنه إحاطة نفسه بالحماية من كارهيه. ولكنه، ليكسب ميلانو، ساعد البابا ألكسندر على احتلال روماچنا فخسر بفعلته هذه أصدقاءه الذين طلبوا حمايته ليكسب الكنيسة، فأضاف للكنيسة قوة على الأرض بالإضافة إلى قوتها الروحية الهائلة. ولم يستطع بعدها أن يكبح مطامع البابا ألكسندر في حكم تسكانيا أيضًا. ولم تتوقف أخطاؤه عند هذا الحد، فبعد أن أضاع أصدقاءه وقوَّى الكنيسة، امتدت غفلته إلى قبول اقتسام نابولي مع الملك الأسباني للحد من طموحاته. وبعد أن كان الحاكم الأوحد أصبح له شريك في الملك، وبعد أن كان بوسعه أن يُنصب حاكمًا في نابولي يكون عاملًا له، شارك مَلكًا يمكنه أن يعزله هو نفسه عن حكم فرنسا. كان أولى به أن يهاجم نابولي بقوات فرنسية ليحتلها، لا أن يقتسمها. فقد سمح لخصم أن يجد موطئًا لقدمه في مملكته التي اكتسبها .

الرغبة في الامتلاك غريزة طبيعية في الإنسان، لكن الأحمق فقط هو من يحاول نيل الأشياء من دون أن يمتلك القدرة، هنا لا يمكن الثناء عليه، بل التوبيخ. وإن كان مبررًا للويس اقتسام حكم لومبارديا مع البنادقة، لأنهم في النهاية هم من استدعوه إليها، فليس الأمر كذلك في نابولي، لأن اقتسامها مع ملك آخر لم يكن مبررًا.

وهكذا ارتكب لويس الأخطاء الخمسة: فهو لم يقم في المستعمرة الجديدة بنفسه، وقضى على أصدقائه الضعفاء فلم يعزز مكانته بقوتهم ليحتمي بهم، وسمح باستفحال قوة موجودة في إيطاليا، واستقدم قوة أجنبية تقاسمه الحكم، وفشل في إنشاء مراكز تقوية وقواعد عسكرية حوله. وكان بإمكانه أن يستمر رغم كل هذه الأخطاء الفادحة لولا أنه قام أيضًا بتقوية الكنيسة وأحضر الإسبان إلى إيطاليا فساهم في إخضاع البنادقة للغريب وإذلالهم. ولو أنه عمل على تقوية البنادقة منذ وصل لتمكنوا من الحيلولة دون ذلك كله.

ولو جادلني مُجادل بأن الملك لويس قد سلم روماچنا للبابا إسكندر وترك مملكة نابولي لأسبانيا لتجنب الحرب، لأجبته بالردود التي ذكرتها آنفًا، وهي أن تجنب الحرب لا يعني الإخلال بالقوة الأساسية أو السماح بالفوضى، فهذا قد يؤجل الحرب لكنه لا يمنعها.. وهذا في مصلحة الخصم، ذلك أن البندقية، بما أنها قوية، كان بوسعها أن تمنع الآخرين من المغامرة بغزوهم .

وإذا رد عليَّ مُجادلي بأن السبب وراء ذلك هو الوعد الذي قطعه البابا إسكندر بالسماح للويس بغزو روماچنا في مقابل أن يحله من زواجه ومنح قبعة الكاردينال لروان، فإنني أجيب بما لا يعرفه بشأن وعود الأمراء وكيفية الوفاء بها.

لقد خسر الملك لويس لومبارديا، إذن، لأنه فشل في الالتزام بالقواعد التي ينبغي السير عليها للاحتفاظ بالمستعمرات، ولا ينبغي لنا أن نستغرب ذلك، فهذه هي النتيجة الطبيعية لعدم الأخذ بالأسباب السياسية، وقد عرضت كل هذه الأسباب على الكاردينال روان حين التقيته في نانت. وقد كانت إجابته أن الإيطاليين لا يفهمون شيئًا عن فن الحرب، فأجبته بأن الفرنسيين لا يفهمون شيئًا عن فن السياسة، فلو كانوا يفهمون لما سمحوا للكنيسة أن تبلغ هذه المكانة العظيمة، وقد أثبتت الأحداث أن مكانة الكنيسة القوية، والسلطة التي حازتها أسبانيا في إيطاليا إنما هي من صنع فرنسا.. في حين أن خراب فرنسا كان بيديها نفسها، ومن هنا نستخلص قاعدة قلما أخطأت: من يسمح لغيره أن يكون قويًا يدمر نفسه، فهو إما أنه سمح له بالوصول إلى تلك المكانة، أو باستخدام هذه القوة، وفي الحالتين، لا يلومنَّ إلا نفسه.

٤

خلفاء الإسكندر

بسط الإسكندر المقدوني سلطانه على آسيا الصغرى بعد أن هزم الإمبراطور داريوس العظيم في معارك متعددة أهمها موقعتي إسوس وغوغميلا. ثم وصل بعد ذلك إلى الهند، وبذلك دانت له الأرض كلها فأسس إحدى أكبر وأعظم الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم والتي امتدت من سواحل البحر الأيوني غربًا حتى سلسلة جبال الهيمالايا شرقًا .

وإن التاريخ ليقف دهِشًا من إنجازه كل ذلك المجد في بضع سنين. وقد سبق الحديث عن الصعوبات الكؤود التي قد يلقاها أمير في الحفاظ على إمارة واحدة، فما بالك بآسيا كلها وقد حيزت لملك واحد؟ والدهشة الثانية أنه لم يكد يبسط سلطانه عليها جميعًا حتى وافته المنية. كأنه رمية سهم أصابت هدفها ثم انتهت. والمتوقع في مثل هذه الحالة أن تثور المستعمرات لتسترد أرضها، أو أن يقع الصدام بين ولاتها. لكن الأعجب أن حلفاءه لم يتعرضوا لهذا الصدام، ولم يجدوا صعوبة في الحفاظ على معظم هذه البقاع، إلا في بعض الحالات التي نشأت بسبب الطمع.

والرد على هذه الدهشة يكمن في معرفة الطرق التي تدار بها الممالك عادة، ولم يكن لذلك إلا طريقتان مختلفتان: إما أن يترأس المملكة كلها سلطان واحد يقوم بتعيين أمراء يقومون بعمل الوزراء فيحكمون بإذنه وسلطانه، أو أن يحكم الولايات بارونات يستحقون التميز لا بمنحة الأمير، وإنما بفضل عراقة منشئهم والدماء الملكية التي تسري في عروقهم، ولهؤلاء يكون هناك رعايا يعاملونهم معاملة الأسياد، وفي مثل هذه الإمارات التي يحكمها أمير وعماله، يتمتع الأمير بسلطة أكبر لأنه الحاكم والباقي عمال له يقيلهم ويثبتهم وقتما يشاء، كل نجاحاتهم تُنسب إليه ولا يجب أن تربطهم بالمحكومين رابطة عاطفية.

وأفضل مثال على هاتين الطريقتين في الحكم المعاصر تركيا وفرنسا، فالمملكة التركية المسلمة على اتساع مستعمراتها يحكمها سلطان واحد، له في كل مصر والٍ يعمل تحت سلطانه ويأتمر بأمره، يعينهم ويعزلهم بكافة الإداريين الذين تحت أيديهم كما يشاء .

أما ملك فرنسا، فقد أحاط نفسه بالأمراء من ذوي النسب العريق الذين يحظون بالتقدير والمحبة من رعاياهم. لهؤلاء الأمراء درجة من التحقق والتفوق لدى رعاياهم، لذا لا يعزلهم الملك تجنبًا للاضطراب.

والمتأمل للمثالين السابق ذكرهما يلاحظ أن غزو مملكة الأتراك عسير المنال، لكن الاحتفاظ بها سيكون سهلًا، بينما احتلال مملكة فرنسا سيكون أسهل، لكن الاحتفاظ بها سيكون أصعب.

وتنبع صعوبة احتلال مملكة الأتراك من حقيقة مفادها أن كل ولاية تتمتع بولاء رعاياها للوالي، كما أن احتمالات الثورة على السلطان ضئيلة للغاية، وهم متحدون حول سلطانهم بطريقة استثنائية، فلا يمكن إيقاع الدسائس بين ولاة الأمصار وبينه، ويصعب إفسادهم. حتى لو فسدوا فلن تكون لذلك أية فائدة، الناس في هذه الحالة سينبذونهم. لذلك فعند مهاجمة الأتراك يجب أن يتوقع الغازي أنه سيقابل قومًا متحدين تمامًا لا يمكن الوصول إليهم من خلال الدسائس، بل عليه أن يعتمد على قوته الخاصة.. وعليه أن يهزمهم في الميدان شر هزيمة بحيث لا يستطيع سلطانهم تجميع جيوشه، وهنا لن يدعو للقلق إلا أسرة ذلك السلطان، لذا وجب اجتثاثها اجتثاثًا وإبادة كل من يمكن أن يخلفه، والغدر بذوي المكانة بين الناس لئلا يخلفوه.. عندها، وعندها فقط، لا شيء يستدعي الخوف.

والعكس صحيح في الإمارات التي تحكمها فرنسا، حيث يمكنك دخولها بسهولة باستمالة أحد بارونات المملكة، ما أسهل الوصول دائمًا إلى أحد الساخطين ومن يطمحون إلى الكرسي.. هؤلاء سيمهدون لك الطريق ويصلون بالنصر إلى التحقيق.. بعدها، ليس

عليك فقط إبادة أسرة الحاكم، بل التوجس ريبة من هؤلاء أيضًا؛ لأن النبلاء القادرين على التمرد سيظلون متواجدين أيضًا، وفي ظل عجزك عن إرضائهم أو إبادتهم، ستضيع مملكتك عند أول فرصة.

والآن، بالعودة إلى مملكة داريوس، فسنجدها مشابهة لمملكة الأتراك، قوتها في قوة حاكمها، لذلك كان من الضروري أن يكون هجوم الإسكندر شاملًا، وأن يقضي على الحكومة قبل أن يقضي على الجيش في الميدان. وعندما تم له النصر بوفاة داريوس، أمسك بزمام الحكم في أمان بالأخذ بالأسباب التي ذكرتها سابقًا، فلو ظل خلفاؤه متحدين لما سقطوا، ولما نشأت الاضطرابات التي تسببوا فيها بأنفسهم. ولكن ليس من السهل الحفاظ على مملكة منظمة مثل فرنسا .

ولعل فيما سبق تفسيرًا للعديد من الثورات التي اندلعت ضد الرومان في أسبانيا وفرنسا واليونان، فقد كانت الولايات متباعدة، بلا شيء يوحدهم، لذلك ظل الرومان غير آمنين ولا مطمئنين على ممتلكاتهم، ولم يصبحوا محصنين بأمان إلا بعد زمن طويل محت فيه القوة الدائمة للإمبراطورية كل ذكرى لهذه الإمارات. فحتى عندما كان أمراء اليونان يتقاتلون فيما بينهم، كان كل حاكم إقليم يستمد قوته من الإقليم الذي يحكمه راغبًا في الاستقلال به، ولما تم القضاء على سلالة الحكام، أصبح الولاء كله للإمبراطورية الرومانية .

والآن، إذا أمعنا النظر في كل ما سبق ذكره، فستزول كل دهشة من كيفية احتفاظ الإسكندر بآسيا، متجاوزًا الصعاب التي مر بها آخرون مثل بيروس وغيره ممن أضاعوا الممتلكات بعد أن بسطوا سلطانهم عليها[1]، فالاختلاف ليس راجعًا فقط إلى كبر أو صغر المملكة المحتلة، بل إلى قدرة الفاتح أيضًا.

[1] حاول بيروس غزو صقلية عام ٢٧٨ قبل الميلاد لكنه فشل، ويعزو ميكيافيلي فشله إلى طبيعة الحكم في المدينة.

أضمن الطرق للقضاء على مملكة حرة هو تدميرها بالكامل.

٥

السيطرة على الإمارات الحرة

عندما يتم استعمار الأمم التي اعتادت على الحرية والحياة وفق قوانينها الأصيلة، هناك ثلاثة طرق للسيطرة والحفاظ عليها. الأول هو تدميرها الشامل، والثاني هو استيطان المستعمر فيها والثالث، وهو أحد الخيارات نادرة النجاح، السماح لشعبها بالبقاء تحت مظلة قوانينه الخاصة مع الاكتفاء بأخذ الجزية، مع صنع أو تشكيل حكومة ملتزمة بقوانينه، لا سيما إذا كان لدى هذه الحكومة الوعي الكافي بكون عماد استمراريتها حماية الحاكم والحفاظ عليه، وبناء عليه تقوم ببذل وافر الجهد وجميع ما يلزم لبقائهما. بالإضافة لكون المدينة التي اعتادت الحرية، ليس بالإمكان إخضاعها إلا إلى أبناء شعبها، وتلك هي الطريقة المثلى للاستحواذ عليها.

وخير مثال على ذلك ما وقع للأسبرطيين والرومان، فقد فرضت أسبرطة هيمنتها واستحواذها على أثينا وطيبة بفضل صنع حكومتين من الأقليات، ورغم هذا فقدت السيطرة والاستحواذ عليهما عندما تخلت عن التزامها بهذه القوانين. أما الرومان، فلهوسهم الشديد بالاستحواذ على كابوا وقرطاجة ونومانتيا، قاموا بتدمير هذه الدول وتحطيمها فاستطاعوا بسط سلطانهم عليها ولم

يفقدوها. لكنهم في استحواذهم على اليونان أرادوا اتباع درب الأسبرطيين بترك حرية الحياة كاملة للمدن تحت مظلة قوانينها فلم يحالفهم النجاح، مما اضطرهم إلى تدمير بعضًا من الدويلات في هذه المدن لاستمرار الاستحواذ عليها. فلا يوجد درب موثوق لتلك الاستمرارية إلا نزع جميع ما تملك. فالهيمنة على الدول الحرة لا يتم إلا بتدميرها، ومن لا يفعل يكون الدمار مآله على أكفها، وهذا مرجعه ديمومة إيجادها الحافز على الثورة باسم الحرية وباسم قوانينها الماضية التي لا تُسدل عليها أستار النسيان. ومهما قدم الحاكم الجديد، فليس باستطاعته أن يُنسي شعب مثل هذه الدول، اسم دولتهم أو تاريخها، لذا عليه ألا يتورع في إرهابهم إلى تحطيمها أشد التحطيم. وتفريقهم وشرذمتهم بكل بقعة. فهم سيبقون متذكرين هذه القوانين يطالبون بها بكل عارض وحادث، مثلما فعلت مدينة بيزا بعد سنوات ممتدة من استعمار الفلورنسيين لها .

أما إذا كانت الدول أو الإمارات قد اعتادت حياة الخنوع والانصياع تحت مظلة أي حاكم أو أمير، وقضى المستعمر على عائلة الحاكم السابق، فإن شعبها الذي اعتاد الخضوع والطاعة، والذي فقد حاكمه السابق، سيكون أكثر وهنًا وضعفًا من أن يمتلك القدرة على اختيار حاكم جديد من بين صفوفه، بالإضافة إلى عدم معرفته بالحياة تحت مظلة الحرية. ولكل هذا فهو بطيء في الثورة رديء في الانفعال لكرامته. ولذا فباستطاعة الحاكم المستعمر، ربح مثل هذه الشعوب بيسر بالغ، وأن يُجذِّر أقدامه في ربوعهم في وقت قصير .

أما الجمهوريات فسمتها الأساسية الانفعال لكرامة الأوطان والحماس العظيم لرد المظالم، والبغض الشديد لانتقاص القدر، والإرادة الوحشية بالثأر، وليس بمقدور شعبها، أن يلقي جانبًا ذكرى حريته العظيمة الماضية. ولهذا فالطريقة الأكثر نجاحًا هو تدمير هذه الدول تمامًا.

امح الهوية وانشر العبث واجعل أصولهم التليدة محل شك.

٦

الإمارات المكتسبة بالسلاح والمهارة

سأحدثك الآن عن نماذج ناجحة لأمراء سادوا بفضل قدراتهم الذاتية وحذو طريق العظماء. لا غرابة في ذلك، فالرجال عادة ما يسلكون الطرق التي عبَّدها لهم من سبقهم، وانتهاج سبل من ثبت نجاحهم. وتقليد العظماء مباح حتى لو لم يستطع المرء الالتزام بصرامة خطوات السابقين نفسها، أو لم يمتلك القدرات ذاتها. ألم يقل المثل السائر: "ضع قدمك حيث وضعها السعيد تسعد". إن الرجل الحكيم ليرنو إلى السير في طريق الرجل المتفوق علَّه، إن لم يصب نفس نجاحه، يدرك بعض تفوقه. والرامي الحكيم هو من يعرف حدود قوسه ويحدد هدفه، حتى إذا حقق هدفًا تطلع إلى هدف أبعد ثم أبعد.. هذا هو الطموح.

لذلك، أقول إن درجة الصعوبة التي يواجهها الأمير الجديد في إمارة حديثة التأسيس سوف تعتمد على قدراته الذاتية. وبما أن صعوده من مواطن عادي إلى أمير يتطلب مواهب ذاتية أو منحة قدرية، فيبدو أن وجود أحد هذين العاملين أو الآخر سوف يقلل جزئيًا من الصعوبات التي يواجهها. غير أنني يجب أن أنوه إلى أن الذين اعتمدوا

على القدر أكثر كانت احتمالات نجاحهم أقل. وأولئك الذي ثابروا وعظَّموا قدراتهم بالمران والمثابرة كانت فرص نجاحهم أوفر .

ولو أردت أن أضرب لك المثل على الذين وصلوا من خلال القدرة والاجتهاد والمثابرة، وتتبع سير الرجال الجديرين بالإعجاب، فستجد إن أبرزهم موسى، وكورش، وروموولوس، وثيسيوس،[1] وأمثالهم من العظماء المتحققين. وإذا كان علينا أن نستثني موسى من هذا لأنه كان مدعومًا بقوة الإله ومنفذًا لأوامره، فعلينا ألا ننكر أنه يستحق الإعجاب بسبب المواصفات التي جعلته جديرًا بالتحدث إلى الإله .

فانظر، سيدي، إلى كورش وغيره ممن غزوا التخوم وأسسوا الممالك، تجد أن أفعالهم ونضالهم لا يختلفان عن قوة أفعال موسى ونضاله، وهو الذي كان له مثل ذلك المرشد العظيم. ليسوا مدينين للقدر بشيء سوى فرصة منحتهم المادة لتشكيلها بالوضع الذي اعتقدوا أنه صحيح. ودون الفرصة، كانت قدراتهم لتضيع، ودون

كورش: مؤسس الإمبراطورية الفارسية (٥٥٨-٥٢٩ قبل الميلاد)؛ روموولوس: المؤسس الأسطوري لروما؛ ثيسيوس: البطل الأسطوري لأثينا. هذا الاختلاط بين الشخصيات التوراتية والأسطورية (التي يقبلها المؤلف باعتبارها حقيقية) لا يضعف بأي حال من الأحوال وجهة نظر مكيافيلي هنا إذا ما اعتبرناهم جميعًا ممثلين لأنماط سياسية رمزية .

قدراتهم، كانت الفرصة لتصبح عبئًا. فانظر كيف جعلوا من صعوبة الظرف بطولة، وتأمل كيف خرجوا أبطالًا من قلب المحن:

فقد كان من الضروري أن يجد موسى شعب إسرائيل مستعبدًا مضطهدًا من قبل المصريين حتى تكون رغبة أتباعه في الهروب من مصر قوية. وكان من الضروري أن يُطرد رومولوس من ألبا وأن يُلقى عاريًا في سلة داخل نهر "تيبر" فيُعرّض للموت لحظة ميلاده ليؤسس بعد ذلك روما ويصير ملكًا لأمة بهذه الضخامة، وكان من الضروري أن يجد كورش الفرس ساخطين على حكم الميديين، وأن يلقى الميديين في أردى حالات الضعف بعد أن تحولوا إلى مخنثين نتيجة السلام الطويل الذي عاشوه. ولم يكن ثيسيوس ليتمكن من إظهار قدراته لولا أنه وجد الأثينيين مشتتين ممزقين شر ممزق. ولقد أتاحت هذه الأقدار لهؤلاء الرجال الفرصة فصنعوا بأسهم من معاناتهم، وقد مكنتهم قدراتهم العظيمة من اقتناص هذه الفرصة. ونتيجة لهذا، أصبحت ممالكهم عتيدة مزدهرة.

وإذا نظرت إلى النماذج التي استعرضناها، فستجد أن الذين أصبحوا أمراء بفضل قدراتهم –كما فعل هؤلاء الرجال- قد حققوا الإنجاز بصعوبة بالغة لكنهم بذلوا جهدًا أيسر بعد ذلك في الحفاظ عليه. والصعوبات التي يواجهونها بعد ذلك تنشأ نتيجة محاولة تطبيق الأساليب الجديدة في الإدارة والحكم، والتي يضطرون إلى إدخالها لإقامة دولتهم وضمان بقائها. فالوصول إلى القمة بعد جهد ونضال

يجعل الثبات عليها سهلًا، أما ارتقاؤها بضربة حظ أو خبطة قدر عشواء فإن أولئك لا يلبثون عليها إلا قليلًا.

ومن الجدير بالذكر يا سيدي ألا شيء أصعب في التنفيذ وأقل يقينًا في النجاح، وأبلغ خطرًا على السلطان من فرض نظامه الجديد للحكم؛ فالمصلح لا يَعدَم الأعداء، ذلك أن من يُبادر إلى الإصلاح يعادي كل من استفاد من النظام القديم، ولا يجد إلا مدافعين فاترين من أولئك الذين سيفيدون من النظام الجديد. وينشأ هذا الموقف الفاتر جزئيًا من الخوف من الخصوم، الذين يقف القانون إلى جانبهم، وجزئيًا من عدم تصديق البشر بشكل عام، الذين لا يؤمنون بالأشياء الجديدة إلا بعد أن تثبت صحتها بالتجربة. لذلك، كلما سنحت الفرصة للنظام القديم للهجوم، فإنهم يفعلون ذلك بحماسة حزبية، ذلك أنهم يعرفون وسائل النفوذ ويتقنون الدسائس وتعبئة العوام والاتقاء بمظلة القانون. بينما يدافع الآخرون عن النظام الجديد بشكل فاتر يعرض الأمير للخطر .

ولكي نعالج مسألة الحفاظ على النجاح، من الضروري أن نفكر فيما إذا كان هؤلاء العباقرة قادرين على الصمود والاستمرارية بمفردهم أم بالاعتماد على آخرين؟ وهل سيسعون إلى فرض أساليبهم باللين أم بالإجبار؟ والإجابة أنهم إذا لَجَأُوا للخيار الأول (اللين) فسوف تسوء الأمور ولن يحققوا أي نجاح، أما إذا اعتمدوا على القدرات والقوة الباطشة فنادرًا ما يفشلون. والدليل على ذلك أن كل الأنبياء

المسلحين قد نجحوا، أما الذين لم يكن لديهم إلا السكينة والإيمان قد فشلوا.. وبعضهم ذُبحوا .

بالإضافة إلى كل ما سبق من أسباب الخور والهزيمة أن الناس بطبيعتهم متقلبون، من السهل إقناعهم بمسألة مستحدثة، ومن الصعب ثباتهم على حالة معينة، لذلك يجب أن تُفرض عليهم الأمور بالقوة، فمن لم تضمه القناعة إلى جانبك، فلتجمعه رهبة السيف. وما كان بوسع موسى، وكورش، وثيسيوس، ورومولوس أن يطبقوا دساتيرهم لفترة طويلة لو كانوا غير مسلحين، كما كانت الحال في أيامنا هذه مع جيرولامو سافونارولا، الذي فشل في تطبيق شريعته ففقدت الجماهير إيمانها به ولم تعد لديه وسيلة للإبقاء على قناعتهم، ولم تكن لديه القدرة على إجبار غير المؤمنين على الإيمان فانتهت الأمور بشنقه وحرقه بعد أن كان الخطيب المُفوَّه ثم السيد المطاع. وهكذا تنشأ المصاعب في طريق الرجال، وعليهم استخدام قدراتهم في الخلاص منها.. فطريق السلطة مصحوب بالمكائد ولو لم توجد البراعة لما استُطيع التغلب عليها. والقوة توجب التبجيل، ولو لم يُقمع كل من يتطاول لما كان السلطان آمنًا مكرمًا ناجحًا.

ولكم أود، لو سمح لي سيدي، أن أضيف إلى هذه الأمثلة واحدًا أقل شأنًا، وإن كان على درجة من التناسب، وسأكتفي بضرب الأمثلة بعده في هذا الصدد، وأعني به هيرو السيراكوزي، الطاغية اليوناني

الذي عاش بين عامي ٢٧٥ إلى ٢١٥ قبل الميلاد، فقد انتقل من درجة مواطن عادي إلى قائد عسكري ثم إلى سيد يحكم المدينة، ولم يكن مدينًا للقدر في ذلك سوى بإتاحة الفرصة والتواجد بالمكان المناسب في الزمان المناسب. فقد كان أهل سيراكوزا مضطهدين منهزمين فقادهم للنصر على الماميرتينيين، وتحالف مع روما رغم العداء القديم لينتصر على القرطاجيين والرومان. لا غرو في أنه انتقل بفضل براعته إلى مركز الحاكم –لا بفضل القدر أو الحظ. لقد كان هيرو السيراكوزي ذا قدرات رائعة وعقل راجح لدرجة أن الناس كانوا يقولون إنه لم يكن ينقصه إلا الفرصة ليكون ملكًا ليس كمثله ملك. فماذا فعل هيرو بمجرد أن أصبح الحاكم؟ تحول إلى طاغية كامل الطغيان. لقد دمر الميليشيات القديمة وتخلى عن أصدقائه القدماء وأنسى كل متشكك أنه لم يكن ملكي النشأة كريم المحتد، وأنشأ حوله تحالفات جديدة وكوَّن جيشًا ضخمًا فأصبح قادرًا بعد ذلك على السيطرة على كل شيء وتأمين المملكة... وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي تطلبها إحكام السيطرة، إلا أن الحفاظ على ملكه لم يتطلب الكثير من الجهد.

لا تعتمد على خدمات الحظ، لأنها عشواء، ودوامها مؤقت.

٧

الإمارات المكتسبة بمساعدة القدر

أما الذين يرتقون إلى منصب الإمارة بمساعدة القدر، أو بمنحة مانح تنقلهم من صفوف العامة إلى المنصب السامي، فإنهم لا يعانون أي صعوبات في البداية، إذ هي كما قلنا "ضربة حظ"، لكن الصعوبات كلها تظهر في محافظتهم على المركز الجديد، فالمانح قد يختفي والحظ قد ينتهي، والقدر قد ينقلب. ليس كافيًا أن يضع المحظوظ مؤخرته على كرسي الإمارة، فعليه أن يبذل جهدًا في الحفاظ عليه، والقدر ليس في صفك دائمًا. نفس الشيء ينسحب على الذين يصلون إلى الإمارة بالرشوة أو شراء الذمم.

ولقد رأينا من قبل كيف عيَّن داريوس خلفاء على ممالكه في اليونان والهليسبونت ليحكموا باسمه ويصونوا إماراته ويحموا أمجاده. هؤلاء لا يمكننا أن نعد وصولهم ضربة حظ، لأنه اختارهم بعد تمحيص ودربة. لكنها نظرية تنطبق كثيرًا على من يرتقون من صفوف الشعب بالرشى والحظوظ، وكلاهما مؤقت لا دوام له. ومتى تخلى عنك القدر أصبح الاعتماد كله على المواهب الخاصة وحسن الإدارة، وإن لم تتوفر في الشخص المهارة والدراية بطرق الحكم، والقوات المخلصة قبل كل شيء، فإن الانهيار سيكون

حتميًا. وككل الأمور التي تبدأ في عجالة، بلا جذور ولا مهالة، تنهار مع أول ريح عاتية، وكذلك الإمارة، فإن لم يسارع أولئك الذين يصبحون أمراء فجأة إلى تحصين مكانتهم، واحتضان هبة القدر بالبدء في وضع أسس الجدارة، فإن خطر الزوال مقيم.

ومع احترامنا لكل من وصل إلى منصب الإمارة بالقدرة أو بالحظ، فسأضرب الآن مثلًا على الطريقتين أبيِّن بهما فعليًّا ما قصدت. وهنا يحضرني في الذاكرة حالتين هما فرانشسكو سفورزا وبورجيا.

فالأول رجل ذو أصل عادي من صفوف الشعب، وصل إلى الحكم بقدراته الخاصة والطريقة المناسبة، فانتقل من صفوف العامة ليصبح دوق ميلانو. ولأنه وصل إلى هذا المنصب بعد صعوبات ومكائد، استعان في التغلب عليها جميعًا بالخبث والدهاء، فقد حافظ على مركزه بعد ذلك بجهد يسير؛ هذا لأن الصعاب تمنحنا الدربة والخبرة، فمن يعاني أكثر يدرك قيمة المكانة أكثر.

أما بورجيا، وهو المعروف أيضًا باسم فالنتينو، فقد وصل إلى السلطة بفضل نفوذ أبيه وثرواته، وسرعان ما فقدها. لقد ذكرت سابقًا أن من لم يحسن التأسيس لن يصلح البناء. حاول بعد ذلك أن يتدارك الأمر لكن محاولة البناء كانت من غير أساس، وهي في لحظة ما غالبًا ما تهدم المعبد كله.

أراد الدوق فالنتينو (بورجيا) تأمين فتوحاته وتوسعة ممتلكاته، لكنه وجد عقبتين في طريقه: الأولى تتعلق بالولاء المشكوك فيه لقواته؛

والثانية تتعلق بموقف فرنسا. لقد خشي أن تفشل قوات أورسيني وكولونا، التي استخدمها في مساعدته، وأن تعوقه، ليس فقط عن تحقيق المزيد من الفتوحات، بل وتحرمه مما حققه بالفعل؛ وخشي أن يفعل الملك لويس الشيء نفسه .

كانت خطوة الدوق الأولى في روما هي محو كل ولاء للفصيلين السابقين، أورسيني وكولونا، وقد نجح بمهارة في استقطاب أنصارهما من النبلاء والكبراء بتقديم الرُشَى السَّخية ورفع المكانة مقابل الخيانة بالتنصيب في مراكز مرموقة. وفي غضون أشهر قليلة نسوا ولاءاتهم السابقة تمامًا وكرسوا أنفسهم في خدمة الدوق، بل أنهم بَدَأُوا معه في البحث عن طرق للقضاء على أورسيني وكولونا نفسيهما. وهكذا كانت الفرصة التي حظي بها رائعة وكانت استجابته لها أكثر إثارة فانتصر –بمساعدة ملك فرنسا- على كل التحديات.

وعندما استعاد الدوق بورجيا مكانته السابقة، قرر أنه من أجل تجنب المخاطر لن يعتمد على ملك فرنسا أو على أي قوات أخرى. ولجأ بدلًا من ذلك إلى الخداع والمؤامرات، فقد كان يتقن إخفاء غاياته وكتمان خطواته حتى عن أقرب الأقربين. ومن ذلك أنه لم يقبل تسوية خلافاته مع عشيرة أورسيني إلا من خلال وساطة باولو أورسيني نفسه، والذي قدم له الدوق كل مجاملة، ومنحه هدايا من المال والأردية والخيول من أجل كسب ثقته في البداية. وقد وثقوا به بالفعل، وتلك كانت حماقتهم التي أوقعتهم بين يديه في

سينيجاليا؛ فبعد أن اعتقدوا أنهم تصالحوا تمامًا معه وأمنوا جانبه فلم يعودوا يحذرون منه انقض عليهم في لحظة غفلة وشنق ثلاثة منهم على الفور (فيتيلوزو فيتيلي وأوليفروتو دا فيرمو ودوق جرافينا). ثم أمر بالقبض على باولو أورسيني ليلقى نفس المصير بعد بضعة أسابيع. وهكذا قتلهم باستخدام رجالهم وخيانة أنصارهم .

وبعد أن تخلص الدوق بورجيا من هؤلاء الزعماء بالحيلة والدهاء، جعل من أتباعهم حلفاء، فأصبحت لديه الأسس السليمة التي يحتاج إليها لإقامة سلطته وإحكام قبضته، حيث سيطر تمامًا على روماچنا ودوقية أوربينو، والأهم من كل ذلك، أنه اكتسب ثقة جميع سكان روماچنا، الذين بدأوا يتذوقون ثمار حكمته. فلقد كانوا تحت إمرة حكام عاجزين عن تحقيق أي إنجاز، وأكثر ميلًا إلى السلب والنهب فخلقوا أسبابًا للانقسام بدلًا من الوحدة حتى أن المقاطعات تكاد تكون خربت بفعل اللصوصية والعنف في كل الربوع .

ثم كوّن الدوق حكومة قوية لتعيد النظام بصرامة كاملة، ونصَّب على رأسها ريميرو دي أوركا، وهو رجل قاس حازم سيطر على كل السلطات فاستطاع في وقت قصير إعادة تماسك المقاطعات واكتسب احترامًا كبيرًا لدى الدوق الذي ترك له القسوة وتظاهر هو بالتقوى .

نعم، تظاهر الدوق بورجيا بلين عريكته والاستغناء عن صرامته خشية أن ينقلب الحال إلى كراهية فأنشأ محكمة مدنية برئاسة قاض بارز وممثل لكل مقاطعة. وفي الخفاء، لم يتخل عن قسوته، لكنه أوعز إلى الناس كلما تذمروا أن القسوة ليست منه.. بل من وزيره. ولما زادت القسوة واشتد السخط وكادت الأمور تنفلت، استيقظ الناس ذات صباح على رؤية جسد ريميرو ممزقًا مقطوع الرأس في ساحة تشيزينا العامة، وبجواره كتلة خشبية وسكين ملطخ بالدماء. لقد كان رعب هذا المشهد سببًا في شعور الناس بالصدمة من طريقة القتل البشعة والرضا بموت الوزير الظالم.. والخوف من ميتته الغامضة في الوقت نفسه .

ربما نناقش الوسائل التي اتبعها بورجيا لتدارك الأمر لاحقًا، فكل تصرفات الأمراء ستكون موضع دراستنا .

المثال الآخر هو ألكسندر السادس الذي كان راغبًا في جعل ابنه دوقًا فواجه صعوبات حاضرة ومستقبلية عديدة، على رأسها الكنيسة، فقد كان السبيل الوحيد لتنفيذ رغبته هو موافقة البابا، وكان هذا هو المستحيل بعينه. ولم يكن دوقا ميلانو والبندقية ليسمحا بذلك. وقد كانت القوات التي يمكنه الوثوق بها تحت سيطرة الكنيسة، وبالتالي لا يمكن أن يعتمد عليها .

لجأ ألكسندر إلى الحيلة بزعزعة الأوضاع وإدخال الفوضى بين الولايات الإيطالية، وذلك للحصول على حيازتها حيازة آمنة. واستعان بملك فرنسا لوبي الأول. وكان من السهل القيام بذلك إذ

كانت تلك هي رغبة البنادقة أنفسهم. إذ كانت رغبتهم إعادة فرنسا إلى أحضان إيطاليا وهي الرغبة التي تحققت بحل زواج الملك لويس الأول .

ولما دخل الملك لويس الأول إيطاليا بمساعدة البنادقة ومباركة ألكسندر وموافقة البابا، اشترط الملك لويس أن ينفرد بسلطة ميلانو قبل أن يمنح ألكسندر القوات التي يحتاج إليها لبدء مغامرته في روماچنا[1]

ولنعد الآن يا سيدي لما بدأناه لنستكمل ما تركناه، فعندما استطاع الدوق بورجيا تأمين موقعه، وتأكد من سيطرته على الأمور، والحماية من أية أخطار بعد أن قضى على معظم القوات وأسكت كل الأصوات، وجد أن العقبة الوحيدة المتبقية أمامه هي صديقه ملك فرنسا الذي ساعده في البداية بالعتاد والقوات. هنا بدأ الدوق في البحث عن تحالفات جديدة. وقد كاد يفلح في تحقيق كل ما أراد لولا وفاة البابا ألكسندر.

لقد خطط لكل شيء حوله، فيما عدا المستقبل، فقد كان عليه أن يفكر فيما كان البابا الجديد سيكون ودودًا معه ولن يحرمه مما حباه به البابا ألكسندر. وفي هذه النقطة حاول تدارك الأمر بأربع طرائق: أولًا بالقضاء على سلالة كل اللوردات الذين انتهبهم وسلبهم حتى لا يستخدمهم البابا الجديد ضده، وثانيًا بكسب ولاء نبلاء روما ليكبح

[1] منطقة تاريخية إيطالية

بهم جماح البابا الجديد، وثالثًا بكسب أكبر عدد ممكن من الكرادلة، ورابعًا بتجهيز القوى والاستعداد لمقاومة البابا الجديد خليفة ألكسندر إذا فكر أن يهاجمه.

ومن بين هذه الأهداف الأربعة، كان قد حقق ثلاثة منها عندما مات ألكسندر، بينما كان الهدف الرابع على وشك أن يتحقق. فقد قتل أكبر عدد ممكن من اللوردات الذين سلبهم، ولم ينجُ منهم إلا عدد قليل. كما اكتسب ثقة النبلاء الرومان، وأصبح بوسعه المطالبة بحصة كبيرة للغاية من مجمع الكرادلة. أمَّا فيما يتصل بالفتوحات، فقد وضع بالفعل خططه ليصبح سيدًا لتوسكانا، كما استولى بالفعل على بيروجيا وبيومبينو، وأصبح حاميًا لبيزا. واستأمنته بيزا على حمايتها.

وما إن أدرك أنه لم يعد مضطرًا إلى مراعاة رغبات فرنسا حتى قرر اجتياح بيزا. ثم استسلمت مقاطعتا لوكا وسيينا بسهولة بسبب الخوف... كل هذا قطعه موت ألكسندر بعد خمس سنوات فقط من استلال الدوق السيف لأول مرة. ولم يبق له إلا السيطرة على مقاطعة روماچنا، بينما كان كل شيء آخر لا يزال معلقًا في الهواء، واقفًا بين جيشين قويين للغاية، بالإضافة إلى مرضه المميت. لاحظ أن الفشل قد يأتي أحيانًا بسبب معاندة القدر وخبث الظروف، فقد أصيب هو وأبوه بمرض خطير بعد عشاء في مقر أحد الكرادلة، وبعد أقل من أسبوعين مات الأب ولم يتعاف الابن إلا بعد عناء طويل.

ومع ذلك، كان الدوق يتمتع بقدر كبير من القوة والشجاعة والقدرة والمعرفة بكيفية كسب الرجال أو تدميرهم، وقد أرسى بسرعة أسسًا متينة لدرجة أنه لو لم يتعرض لضغوط من الجيشين ولو كان يتمتع بصحة جيدة لكان قد تغلب على كل الصعوبات. لقد انتظرت روماچنا ظهوره أكثر من شهر، وعلى الرغم من أنه لم يكن على قيد الحياة إلا نصف الوقت، فقد كان بإمكانه البقاء في روما دون خطر. ولكن لو كان يتمتع بصحة جيدة عندما توفي ألكسندر، لكان كل شيء سهلًا بالنسبة له. لقد أخبرني عندما انتخب البابا يوليوس الثاني أنه تنبأ بكل ما يمكن أن يحدث في لحظة وفاة والده، وأنه وجد علاجًا لكل طارئ، لكنه لم يتوقع أبدًا أنه في نفس الوقت سيكون أيضًا قريبًا من الموت.

وحين أراجع الآن تصرفات الدوق بورجيا، لا أجد ما ألومه عليه. بل أنني أعتقد أنه يعد مثالًا يحتذي به كل من وصل إلى السلطة بفضل ثروات الآخرين وسلاحهم. ولأنه كان يتمتع بروح عظيمة وطموح نبيل، وأنه تصرف كما ينبغي. ولم يكن من بين الأسباب التي أعاقت خططه سوى وفاة ألكسندر المفاجئة، إلى جانب مرضه. لذلك، إذا كنت أميرًا تمتلك إمارة مكتسبة حديثًا وترى أنه من الضروري أن تحمي نفسك من أعدائك، وأن تكسب حلفاء، وأن تفوز إما بالقوة أو بالاحتيال، وأن تحبك رعيتك وتخشاك، وأن تحترمك وتطيعك قواتك، وأن تقضي على الذين يمكنهم مهاجمتك، وأن تصلح المؤسسات القديمة وتحدثها، وأن تكون صارمًا ولكن ودودًا، وكريمًا

وليبراليًا، وأن تلغي الميليشيات غير المخلصة ونكوّن أخرى أشد إخلاصًا، وأن تحافظ على صداقة الملوك والأمراء بطريقة تجعلهم إما يفضلونك بلطف أو يعارضونك بحذر، فلن تجد لمثل هذه الأغراض مثلًا لتتبعه خيرًا من هذا الرجل.

الخطأ الوحيد الذي وقع فيه هو أنه سمح بانتخاب يوليوس الثاني للبابوية، إذ كيف يسمح بانتخاب شخص لا يؤيده ولا يمنحه ما منحه أبوه البابا السابق؟ سببان يؤديان إلى الإيذاء دائمًا، وهما الخوف والكراهية.

ومن بين الكرادلة الذين أساء إليهم: جوليانو ديلا روفيري، وجيوڤاني كولونا، ورافاييلو رياريو من سافونا، وأسكانيو سفورزا. وكان لدى الآخرين سبب للخوف منه باستثناء الكرادلة الإسبان وكاردينال روان -الأول بسبب الروابط العائلية والالتزامات الأخرى، والثاني بسبب علاقاته بالمملكة الفرنسية.

كان يجب على الدوق انتخاب رجل أسباني لمركز البابوية، وإلا، فقد كان لزامًا عليه أن يقبل الكاردينال روان، وليس جوليانو ديلا روفيري. إن أولئك الذين يعتقدون أن عملًا واحدًا طيبًا يتسبب في نسيان الجراح القديمة يخدعون أنفسهم. وهكذا أخطأ الدوق في الانتخاب، وكان ذلك سببًا في سقوطه.

إذا بطشت فابطش بحسم، وإذا ضربت فأوجع.. اجعلها حملة لا رحمة فيها،

ثم أقم العدل أو لا تقمه حسبما تقضي الضرورة.

٨

ميزان القسوة

ذكرنا فيما سبق أن هناك وسيلتين للوصول إلى الحكم: القدرات الشخصية والمنحة القدرية. بيد أن هناك وسيلتين أخريين لا يمكننا تجاهلهما، خاصة في الجمهوريات، أولهما الوصول إلى الكرسي بالطرق المنحطة، وثانيهما بتأييد المواطنين لواحد منهم ليولُّوه عليهم. وسوف أضرب مثالين لهاتين الطريقتين من التاريخ القديم والمعاصر دون استفاضة لنأخذ منهما العبر، فقد يضطر الأمير أحيانًا إليهما إذا اقتضت الضرورة. ولنبدأ بالفئة الأولى:

- لم يكن أغاثوكليس مجرد رجل عادي من أهل صقلية، بل كان إنسانًا نادرًا رغم وضاعة منشئه، شجاعًا إلى أبعد الحدود، فقد عاش هذا الرجل، الذي وُلد لأب يعمل في صناعة الفخار، حياة بائسة في كل مراحل حياته. رغم ذلك، فقد كان ذا عبقرية ذهنية وقوة جسدية هائلتين، حتى إنه ما إن سلك المهنة العسكرية حتى ترقى في الرتب إلى أن أصبح قائدًا عسكريًا. وبعد أن اعتلى منصب القيادة قرر أن يكون حاكمًا لسيراكوزا بالقوة دون أن يلتزم بأي عرف أو قانون. اتفق على مؤامرة مع هاميلكار القرطاجي أحد قادة الجيش

في صقلية، ثم أمر مجلس الشيوخ وأغنياء شعب سيراكوزا بالتجمع في صباح أحد الأيام لبحث أمر ضروري في شؤون الحكم. وعند إشارة معينة، أمر جنوده بالانقضاض على جميع أعضاء مجلس الشيوخ وكل المواطنين الأثرياء فأبادوهم جميعًا بالطعن وقطع الرقاب. (أظنه لم يتورع عن قتل هاميلكار قائد الجيش بعد ذلك).

وهكذا دانت له المدينة فاستولى على مقاليد الحكم دون أي مقاومة مدنية، ودون أي اعتبارات لأصدقاء أو لولاء من ساندوه ابتداءً. ورغم أنه هُزِم مرتين على يد القرطاجيين وحاصروه داخل سيراكوزا، فإنه لم يخضع ولم تصل به الهزيمة إلى تسليم المدينة، بل صمد حتى استطاع تحريرها من الحصار. ولم يدافع عن مدينته فحسب، بل ترك وراءه جزءًا من قواته لحمايتها، وغزا إفريقيا ضمن قوات استعمارية أخرى، مما أدى إلى إجبار القرطاجيين على الاكتفاء بالاستيلاء على إفريقيا وترك صقلية له .

لا يمكن لأي باحث في حياة ذلك الرجل أن ينسب ما وصل إليه إلى القدر، كما أنه لم يرق إلى ما رقيَ إليه بمنحة من ملك أو مساعدة من جماعة، بل بفضل براعته وشراسته وإقدامه على المشاق وحنكة تسلقه إلى قيادة الجيش. ثم إنه وطد سلطانه بالعديد من المشاريع الجريئة المحفوفة بالخطر. أنا لا أقول إن قتل المواطنين وخيانة الأصدقاء وقطع الرقاب بلا شفقة فضيلة.. فبهذه الأساليب قد

يفوز المرء بالسيادة ولكن ليس بالمجد. ولكن لماذا ننظر إليه نظرة دونية وقد تحلى بالجرأة في مواجهة الأخطار والسير في طريق جبار نتيجته السؤدد أو الدمار؟ ولماذا لا ننظر إلى عظمة روحه في تحمل الشدائد والتغلب عليها بما لا يجعله أقل من أعظم قواد التاريخ؟ وأنا أقر رغم ذلك بأن قسوته اللا إنسانية وأعماله الوحشية العديدة لا تسمح له بأن يُحتفى به بين الرجال ذوي التميز غير العادي. لكنني أرى أن ما حققه لا يمكن أن يُعزى إلى هبة القدر أو ضربة الحظ.. لكنه الإصرار على النجاح مهما كانت المعوقات.

***

- وفي زمننا المعاصر، عندما كان البابا ألكسندر السادس حاكمًا كان هناك مثال آخر لا يقل عظمة ومكرًا وبراعة، هو أوليفرتو دا فيرمو الذي كان يتيمًا منذ ولادته فأواه عمه چيوفاني وقام بتربيته ثم أرسله في شبابه المبكر ليخدم في الجيش أملًا في الوصول إلى رتبة لائقة. ولأنه كان عنيدًا قويًّا جسورًا، سرعان ما أصبح قائدًا يرى في تلقي الأوامر من الآخرين إهانة، فخطط مع بعض مواطني فيرمو انقلابًا للاستيلاء على المدينة لنفسه. وبالفعل نجح الانقلاب وزاد أتباعه فاستطاع السيطرة على فيرمو.

ثم كتب إلى عمه چيوفاني الذي رباه خطابًا يخبره فيه برغبته في رؤيته والعودة لزيارة مسقط رأسه والاطلاع على ميراثه، وليرى مواطنوه ما وصل إليه من المكانة.

أخبره أوليفرتو أنه سيزوره في صحبة مائة فارس راجيًا أن يرتب له استقبالًا رائعًا، مثل هذا الترحيب لن يجلب له وحده السعادة، بل سيمنح عمه الشرف أيضًا.

لست بحاجة أن أخبرك يا سيدي عن سعادة العم الذي أصبح ربيبه ملكًا ذا سلطان؛ أغلب الظن أن الاحتفال الكرنفالي بدأ من حدود فيرمو حتى بوابة القصر.

أجل، لم يأل العم چيوفاني جهدًا في أداء واجبه تجاه ابن أخيه. فحرص على استقباله في حشد ضخم من المواطنين متباهيًا به بين الناس. منحه قصره الخاص ليقيم فيه، حيث قام أوليفروتو بعد بضعة أيام، بعد أن اتخذ كل الترتيبات اللازمة للجريمة التي كان يعتزم ارتكابها، بإعداد مأدبة فخمة دُعي إليها الخال وجميع كبار مواطني المدينة. وعندما انتهى العشاء وكل وسائل الترفيه التي تشكل جزءًا معتادًا من مثل هذه التجمعات، بدأ أوليفروتو، كحيلة استدراجية، في مناقشة بعض الأمور الجادة وتحدث عن عظمة ألكسندر السادس وابنه سيزاري ومشاريعهما. وعندما بدأ عمه چيوفاني والآخرون في الرد، نهض أوليفروتو غاضبًا فجأة –وبلا سبب تقريبًا- وقال إن مثل هذه الأمور يجب مناقشتها في مكان أكثر

خصوصية. ثم انسحب إلى غرفة أخرى وكانت هذه إشارة ليندفع الجنود من أماكن اختبائهم ويقتلوا چيوفاني وكل من كان معه.

وبعد المذبحة، امتطى أوليفروتو جواده، وجاب المدينة وحاصر قصر كبار القضاة، الذين اضطرهم الخوف إلى طاعته، وأقام حكومة وضع نفسه على رأسها. وبعد أن قتل كل من كان بوسعه أن يحول الاستياء إلى أذى، شرع في تعزيز موقفه بإصدار قوانين مدنية وعسكرية جديدة، حتى إنه خلال العام الذي حكم فيه لم ينجح في تأمين نفسه في فيرمو فحسب، بل وأصبح أيضًا مصدر قلق لجيرانه.

ولكن الذين يَبْدَأُونَ بالدماء ينتهون بالدماء أيضًا. وكما في حالة أغاثوكليس، لم يكن من السهل القضاء عليه لو لم يقع في خدعة بورجيا، حيث تم القبض عليه بعد عام واحد من قتله لوالده، وهناك تم خنقه مع فيتيلوزو، الذي علمه البسالة في القرار، وشجعه على الخيانة أيضًا.

وقد يدهش البعض كيف استطاع أغاثوكليس وغيره من الطغاة أن يظلوا آمنين في ممالكهم بعد كل هذه القسوة والخيانة التي ارتكبوها، وكيف استطاعوا دفع الخطر الخارجي ومقاومة الأعداء وشجب العالم، وكيف لم يتعرضوا للتآمر من جانب المواطنين، في حين يعجز آخرون لم يلجأوا للقسوة أن ينعموا بمثل هذا الأمن، ناهيك بأوقات الحروب الأكثر غموضًا. أعتقد أن ذلك يمكن تفسيره

بالاستخدام الصحيح وغير الصحيح للقسوة، أو لنقل: ميزان القسوة .

إن استخدام القسوة قد يكون علاجًا ناجعًا أحيانًا (هذا إن جاز لنا أن نتحدث بشكل إيجابي عن شيء سَيِّئ)، فعندما يلجأ المرء إلى استخدام البطش دفعة واحدة وبشكل مكثف ينعم بعد ذلك بالأمان من دون أن يصر على القسوة، بل يسعى لاتخاذ تدابير أكثر فائدة للرعية هو استخدام سليم، لا سيما إذا تناقص البطش مع الوقت. أولئك الأمراء قد يتوقعون العفو من الرب ومن الناس فيما بعد، وقد يسعون إلى تحسين أمور الناس كما فعل أغاثوكليس. أما الذين يلتزمون القسوة طوال المسار، فلا يمكنهم بأي حال من الأحوال الاستمرار في السلطة، ولا بد للقيد أن ينكسر.

لذلك فمن الجدير بالذكر أن الأمير الذي يستولى على إمارة جديدة عليه أن يجمع البطش كله في ضربة واحدة مُصيبًا به كل الأهداف التي يرجوها لكي يتجنب التكرار لنفس الفعلة، ولكي يتفرغ بعد ذلك لخلق الشعور بالأمن بين الرعية واستدراجهم إلى العفو عنه. أما من لا يستطيع التصرف بهذه الطريقة بدافع الخوف أو سوء الإدارة، فعليه أن يحتفظ دائمًا بالخنجر في يده لأنه لن يجد من يثق به، ولأنه سيضطر مرارًا لتحقيق إصابات منفردة وبالتالي لن يحظى بثقة الشعب أبدًا. ارتكب ظلاماتك وأصب أهدافك كلها دفعة واحدة وسيقل استياؤهم مع الوقت .

من جهة أخرى، ينبغي منح المنافع شيئًا فشيئًا حتى تتجدد بها سعادة الناس على أكمل وجه. ثم لا يجب على الأمير أن يغير معاملته للرعية مع اختلاف الأحداث –بحلوها ومرها- بل يحافظ على وتيرة سلوكه. ذلك أن العقوبات المتأخرة –تحت الضرورة الملحة- لا تكون مفيدة، وكذلك الخير المتأخر قد لا يكون ذا قيمة، لأنه سيبدو كأنما فرضته الظروف القهرية لا الرغبة الحقيقية للحاكم.. وبالتالي فلن يشعر أحد بالامتنان.

الإمارة التي تستند إلى القوة والعنف، والإمارة التي تستند إلى الدعم الشعبي.

٩

الإمارة المدنية

والآن ننتقل إلى الحالة الأخرى، عندما يصبح مواطن عادي حاكمًا لإمارته، لا من خلال البطش والقدرة العسكرية، بل بدعم أمثاله من المواطنين فيما يمكن أن نطلق عليه، "إمارة مدنية". الأمر هنا لا يتطلب قدرة استثنائية ولا حظًا باهرًا، لكنه يتطلب قدرًا كبيرًا من الدهاء. والدعم الموجه للحاكم في حالتنا هذه إما أن يكون من الشعب نفسه أو يكون من خاصة الشعب (النبلاء). وهذان القسمان موجودان في كل مقاطعة، وهما ينبثقان من حقيقة عامة مفادها أن العامة لا يريدون التعرض لظلم النبلاء، بينما النبلاء يتغذون على امتيازهم القائم في كثير من الأحيان على الظلم. ومن هذه الرغبات المتضاربة سوف تنشأ إحدى ثلاثة أنظمة: الظلم، الحرية، أو أن يكون كل شيء بتصريح.

ترأس الإمارة هنا يمكن أن ينشأ إما عن طريق عامة الناس أو عن طريق النبلاء، وذلك بحسب أي من الطرفين تكون كروت اللعبة في يديه. فعندما يرى النبلاء أنهم لم يعد بوسعهم الصمود أمام الشعب، فإنهم يمنحون السلطة لواحد منهم ويجعلونه أميرًا حتى يتمكنوا من إشباع شهواتهم متدثرين بعباءته. وعلى نحو مماثل، عندما يرى عامة الناس أنهم لم يعد بوسعهم الصمود أمام النبلاء،

فإنهم يمنحون السلطة لأحد أفراد أحزابهم ويجعلونه أميرًا حتى يجدوا الحماية تحت سلطته.

والرجل الذي يصبح أميرًا بمساعدة النبلاء سوف يجد صعوبة أكبر في البقاء في السلطة من الذي يصبح أميرًا بمساعدة الشعب، لأن الأول سوف يكون محاطًا برجال يرَون أنهم مساوون له. ونتيجة لهذا، فلن يكون قادرًا على قيادتهم أو السيطرة عليهم كما يشاء. أما الأمير الذي يصل إلى السلطة بدعم من الشعب وحده سوف يظل منقوص السند، لأن الشعب متقلب مع الأهواء منقسم في كثير من الأحيان على نفسه. فضلًا عن ذلك، فمن المستحيل إرضاء النبلاء بشكل عادل دون الإضرار بغيرهم من طبقات الشعب، في حين أنه من الممكن بالفعل القيام بذلك فيما يتعلق بالشعب، لأن رغباتهم أكثر ضرورة وشمولية في النعماء. والناس يسعون إلى تجنب الظلم بينما يسعى النبلاء إلى الظلم. ويجب أن نلاحظ أيضًا أن الأمير لا يمكن أن يكون آمنًا أبدًا ضد عموم الشعب لأنهم كثيرون، في حين أنه يمكن أن يكون آمنًا ضد النبلاء لأنهم قليلون. إن أكثر ما يخشاه الأمير من شعب معاد هو أن يتخلى عنه هذا الشعب، أما النبلاء المعادون فما يخافه الأمير ليس أن يتخلوا عنه، بل من المكائد والدسائس لأنهم لن يتوقفوا أبدًا عن حماية مصالحهم، وربما يقفزون من قاربه لركوب قارب أي منافس محتمل أن يفوز عليه في أقرب فرصة. فضلًا عن ذلك، يتعين على الأمير أن يتقبل الناس على ما هم عليه، لكنه يستطيع أن يستغني عمن لا يحب من النبلاء، كما

يستطيع سحب سلطاتهم أو استبدالهم وقتما يشاء ويستمكن من مقاليد الحكم.

ولتوضيح هذه النقطة أكثر، أقول إن النبلاء ينبغي أن ننظر إليهم بطريقتين رئيسيتين: إما أن يضموا مصائرهم إلى مصيرك أو يمتنعوا عن القيام بذلك. فإذا انضموا إليك ولم يتصرفوا بجشع، فينبغي لك أن تكرمهم وتعتز بهم. أما إذا امتنعوا، فينبغي أن ننظر إليهم بإحدى نظرتين: أنهم يفعلون ذلك من خلال الخوف والافتقار الطبيعي إلى الروح المعنوية، وفي هذه الحالة يمكنك الاستفادة منهم، وخاصة من بين أولئك القادرين والحكماء، لأن هؤلاء النبلاء سيجلبون لك الشرف في الرخاء ولا داعي للخوف منهم في الشدائد. أما إذا تولوا عنك بدافع المكر أو الطموح، فتلك علامة على أنهم يضعون مصالحهم في الصدارة، هنا على الأمير الحذر، وأن يجعلهم بمثابة الأعداء لأنهم عند الشدائد سيكونون عونًا عليه، وربما وجدوها فرصة لتدميره.

وبناء على ما سبق، فعلى الأمير الذي يصل إلى السلطة باختيار شعبه أن يحافظ على ثقتهم فيه، وذلك لعمرك أمر يسير، فهم يريدون فقط ألا يظلمهم. أما من يصبح أميرًا بفضل مساعدة النبلاء ضد إرادة الشعب، فعليه أن يقيم الميزان ويسعى إلى كسب ثقة الشعب، وهو أمر سهل أيضًا ما دام ملتزمًا بحماية النبلاء. وبما أن الناس أكثر ولاءً لمن أحسن إليهم، لا سيما حين ينالون خيرًا حيث كانوا يتوقعون الشر، فسوف يكونون أكثر ولاء للذي اكتسب السلطة بدعمهم. وهو أيضًا يستطيع أن يحافظ على ودهم بطرق عديدة

مختلفة؛ وعلى الرغم من أن الظروف والملابسات تختلف، فبإمكانه جعلهم دائمًا في صفه إذا ظلت مصالحهم نصب عينيه.

سأختتم حديثي بالقول إن حب الشعب أمر حيوي بالنسبة للأمير؛ وإلا فإنه سيكون عاجزًا في أوقات الشدائد. لقد تحمل نابيس، أمير أسبرطة، الهجوم من كل أنحاء اليونان ومن جيش الرومان؛ ومع ذلك قد كان قادرًا على الدفاع عن منصبه وبلاده ضدهم. ولضمان سلامته عندما كان يظهر خطر داخلي، كان يكفي اتخاذ تدابير ضد عدد قليل من الرعايا فقط. ولجلالتك أن تتخيل هذا الموقف لو لم يكن يحظى بحب الرعية، ما كان باستطاعته حينها الثبات في وجه الهجوم الخارجي ولا الخطر الداخلي .

والآن، لا ينبغي لأحد أن يدحضني بهذا المثل المبتذل: "مَنْ يعتمد على الناس يبنِ على الطين"، لأن هذا يصدق في حالة واحدة فقط، وهي أن يركن الأمير لحب الرعية فلا يتخذ بقية التدابير العسكرية والقانونية التي تصون إمارته. هنا يقع الأمير في الخطأ، كما حدث مع عائلة جراتشي في روما والسيد جورجيو سكالي[1] في فلورانس.

ولكن عندما يكون الأمير الذي يثق بهم رجلًا شجاعًا قادرًا على القيادة، ولا تهزه الشدائد، ولم يهمل دفاعاته الأخرى، ويمكنه الحفاظ على معنويات رعيته بأوامره ومثاله، فلن ينخدع مثل هذا الرجل أبدًا بحبهم، وسيبنى أساساته جيدًا .

---

[1] نائبا الشعب في عامي ١٣٣ و١٢٣ ق.م على التوالي، وقعا في صراع مرير مع الشعب ومجلس الشيوخ.

والإمارة من هذا النوع عادة ما تواجه صعوبات عندما يحل الحكم المطلق محل بنيتها المدنية، وذلك لأن أمير مثل هذه الإمارة يحكم إما مباشرة أو عن طريق وزرائه. فإذا أساء هؤلاء الوزراء القيام بواجبات مركزهم فإن موقف الأمير يكون أضعف وأكثر خطورة، لأنهم بفسادهم وأطماعهم يستطيعون بكل سهولة حرمانه من السلطة، وخاصة في أوقات الشدة. والخطورة الأكبر أن يصبح كل شيء في يديهم، فالأمير لن يجد الوقت الكافي لإحكام السلطة بين يديه بالكامل عندما تنشأ حالة طوارئ، لأن المواطنين والرعايا الذين اعتادوا تلقي الأوامر منه في الأوقات العادية لن يقبلوا تلقي الأوامر منه في أوقات الخطر .

كما ينبغي لحاكم هذا النوع من الإمارات ألا يضع جل ثقته بالناس، ففي لحظات عدم اليقين سوف يكون هناك دومًا نقص في الرجال الذين يمكن الوثوق بهم. لأن الجميع يكونون حولك أوقات الرخاء؛ وكلهم على استعداد للموت من أجلك عندما يكون خطر الموت بعيدًا. ولكن عندما يظهر خطر حقيقي، وعندما تحتاج الحكومة إلى مواطنيها، فإن قِلة قليلة من الناس تكون على استعداد للمساعدة. وهذا النوع من المواقف هو الأكثر خطورة لأن الحاكم لن يخوضه إلا مرة واحدة. لذلك، على الأمير دومًا أن يضبط كفتي الميزان، فيجعل شعبه دائمًا في الحسبان، ويؤسس حكومته على أكمل الأشكال، متتبعًا تنفيذها لأوامره وانصياعها لخطته، جاعلًا كل ذلك في خدمة الإمارة.. عندئذ فقط سيحظى بالإخلاص والأمان.

أمانك الداخلي أساس قوتك الخارجية، فإذا لم تأمن داخليًا فالقوة وهم زائف.

١٠

كيف تقاس قوة الإمارة؟

بالنظر في طبيعة الإمارات، يتبادر إلى الذهن سؤال، هل يمتلك الأمير من العتاد والمؤن والعزيمة ما يؤهله، وقت الحاجة، لحماية ذاته؟ أم هو في احتياج دائم لمعاونة الآخرين؟

الرأي طبعًا أن الأمراء القادرين على حماية إماراتهم هم من يمتلكون ما يمكنهم من حشد الجيوش وتوفير الموارد، فبها يواجهون من يهاجمهم أو يخرجون في معركة مفتوحة غير مضطرين إلى اللجوء إلى التحصينات والمخابئ. أما إذا لم يكن الأمير مستعدًا بتلك الاحتياطات فنصيحتي له أن يبدأ فورًا في تحصين إماراته وإعداد عدته بلا مبادرة بالخروج إلى الأرض المفتوحة مؤجلًا الاهتمام بالأرياف المتاخمة لمرحلة لاحقة. لا شك أن الخصوم سيفكرون ألف مرة في الانقضاض على أمير حصَّن مدينته وأعد عدته وحافظ على ولاء شعبه ومحبته .

أمَّا من هم بحاجة لمساعدة الآخرين والاستنجاد بالبعيدين، فأولئك ليس باستطاعتهم خوض الحرب ضد أعدائهم، فيكون التجاؤهم دومًا إلى داخل سياجهم محاطين بأسوارهم، ويأخذون وضع الدفاع

دائمًا. وهنا كل ما يمكن لذلك الأمير هو توفير المؤن لإمارته، وتقوية دفاعها، وعدم إزعاج ذاته بأوضاع الحدود المُحاوِطة لها .

ولنضرب مثلًا لما ذكرناه بألمانيا، فمدنها تتمتع بقدر عظيم من الحرية. فهي لا تملك إلا مساحة ضئيلة من الأراضي خارج أسوارها؛ ومع ذلك فإنها لا ترهب الإمبراطور، ولا تخشى أيًا من جيرانها الأقوياء؛ وذلك لأنها محصنة إلى الحد الذي يجعل الجميع على قناعة بأن الاستيلاء عليها مهمة شاقة وصعبة. بالإضافة لذلك، فإن حكوماتها، رغبة منها في ترضية الطبقات الأدنى من شعبها، وعدم تكبيد الخزينة العامة خسائر، ملأت من خيرات الأرض خزائنها، فهي تحتفظ بما يكفي من الطعام والشراب والوقود في مستودعاتها العامة لمدة عام. وأمَّنت جميع أسوارها، ودعمتها بمدفعية كافية. كما أن قادتها وعسكرها يلتزمون بالتدريبات العسكرية ويضعون العديد من الخطط التي تحكمها.

إن الأمير الذي يمتلك ذخيرة قوية ويتجنب إثارة الكراهية يكون في مأمن من خطر الهجوم؛ وحتى لو تعرض لذلك، فإن مهاجمه سيضطر إلى الانسحاب موصومًا بالعار. ذلك أن شؤون العالم متغيرة إلى الحد الذي يجعل من المستحيل على الخصم إبقاء جيشه عاطلًا في حصار غير مجدٍ لمدة عام. والآن، إذا جادلني مجادل بأن الشعب المحاصر، عند مشاهدته ممتلكاته خارج الإمارة تحرق وتشتعل، فسيفقد صبره. وإن مد الحصار قد يجعلهم ينسون

حب أميرهم، فإجابتي أن الأمير المقدام ذا البأس ينتصر دومًا على تلك المشاق برفع معنويات شعبه من جهة، والبرهنة له بأن تلك الشرور لن تدوم، وترهيبهم من شناعة العدو وقسوته، والاطمئنان دومًا إلى أولئك الذين يبدون قمة البسالة. يضاف إلى ذلك لجوء العدو عادة إلى إحراق الحدود المحاوطة للإمارة وسرقتها في اللحظة التي يصل إليها، وعندما تكون أذهان شعبها مملوءة بالحماس للذود عن أرضه. حتى إذا أطالت الإمارة المهاجمة الحصار وفتر الحماس لدى الشعب المحاصر وتسرب اليأس إلى قلوبهم، فلدى الأمير من الرصيد ما يمكنه من استعادة حماسهم الفاتر وتقوية الروابط بهم، خصوصًا إذا أبدى إحساسه بهم وأجزل لهم ما يبذله لأهله من العناية والرعاية بدلًا من أن يقنطهم دومًا بصعوبة الظرف وترويعهم بالخوف.

ومن طبيعة الورى المحافظة على المعونات التي يتلقونها وتقدير من يقدمونها. وعلى هذا، فإذا نظرنا إلى كل شيء على النحو اللائق، فلن يبدو من الصعب على الأمير الحكيم أن يحافظ على عزم مواطنيه، سواء قبل الحصار أو أثنائه، ما دام لا يفتقر إلى الطعام والعزيمة ووسائل الدفاع.

كيف استطاعت الكنيسة أن تفرض سيطرتها على المنطقة وتحول البابا إلى شخصية سياسية مؤثرة؟

١١

الممالك الكنسية

لم يتبق لنا الآن إلا أن نناقش الإمارات الكنسية. وكل المشاكل المتعلقة بها تقتصر على الوقت الذي سبق اكتسابها. فسواء كان اكتسابها بالقدرة أو بالقدر، إلا أنه من الممكن الاحتفاظ بها من دون أي منهما لأنها مدعومة بقوانين لاهوتية متجذرة أثبتت قدرتها على إبقاء الأمراء في السلطة بغض النظر عن الطريقة التي يعيشون أو يحكمون بها. بل إن الأمراء الكنسيين وحدهم يستطيعون الاحتفاظ بدولهم من دون أن يتكلفوا جهد الدفاع عنها، وغالبًا ما يأمنون الرعايا طوال فترة حكمهم. ودولهم، على الرغم من تركها دون حماية، لا تُنتزع منهم، ورعاياهم، على الرغم من تركهم دون حماية، يظلون غير مبالين، ويفتقرون إلى الإرادة والقوة لإزاحتهم. وبالتالي فإن هذه الدول وحدها هي الأسهل حكمًا .

ولكن ما دامت هذه الحالة قائمة على أسباب عُليا تتجاوز الفهم البشري، فلن أناقشها. ولأن الرب يؤيدها، فإن الحديث عنها سيكون عملًا من أعمال التهور. ومع ذلك، إذا سأل أحد كيف حققت الكنيسة هذه العظمة الدنيوية (على الرغم من حقيقة أنها لم تحظ

بالاحترام الكافي بين الحكام الإيطاليين حتى عهد ألكسندر السادس، ليس فقط بين الأقوياء بل بين كل اللوردات الصغار والبارونات أيضًا. بينما يمكنها الآن أن تجعل ملكًا فرنسيًا يرتجف، وتطرده من إيطاليا، وترعب أهل البندقية)، فقد يكون من المفيد أن نذكر الأسباب الرئيسية لانتقال السلطة الكنسية من مرحلة الخمول إلى مرحلة القدرة، على الرغم من أنها أسباب معروفة للجميع. إلا أنني أظن أنه ليس في إعادة الحديث والتذكير به من ضرر بل ربما فائدة.

كانت إيطاليا قبيل شارل، ملك فرنسا، خاضعة لحكم البابا والبنادقة وملك نابولي ودوق ميلان وأيضًا الفلورنسيين. وكان لهؤلاء القادة شأنان يتحتم عليهم العناية بهما، أولهما منع أي أجنبي من دخول إيطاليا بقوة السلاح، وثانيهما المباعدة بين الحكومات المتواجدة ومنعها من بسط حدودها. وكان من الحتمي تسليط الرقابة بصورة خاصة إلى البابا والبنادقة. وقد استلزم ترويض وحشية البنادقة اتحاد كل القادة الآخرين، مثلما وقع في الذود عن فيرارا، ولترويض وحشية البابا أيضًا استخدموا سادة ونبلاء روما. وكان هؤلاء السادة متفرقين إلى قطيعين، قطيع أورسيني وقطيع كولونا. ولكون المشادات والمناوشات بينهما لا تتوقف، وكونهما على الدوام في حالة استعداد للنزال تحت سمع البابا ونظره، فقد جعلوا البابوية هشة ومُكبَّلة. ورغم ظهور بابوات يتسمون بالشدة والبأس في بعض الأحيان كالبابا سيكستوس، إلا أن بأسه وحسن إدارته، لم يمنحاه

القدرة على إنهاء هذه الشرور. وربما قِصر عمر الباباوات كان المتسبب بذلك، ففي خلال العشر سنوات، التي هي عمر البابا بصورة عامة، يكابدون مشقة هائلة في إخضاع أحد الفريقين المتناحرين .وإذا اقترب البابا من سحق طائفة كولونا، على سبيل المثال، فسوف يخلفه بابا آخر يعيدها إلى السلطة، ولكن ليس لديه الوقت الكافي لسحق طائفة أورسيني. وهذا هو الوضع الذي أدى إلى قلة احترام السلطة الدنيوية للباباوات في إيطاليا. وهذا السبب الرئيسي لعدم احترام إيطاليا للسيادة الزمنية التي يتمتع بها البابا .

ثم جاء ألكسندر السادس، الذي كان أول من أظهر، من بين كل الباباوات الذين مروا على الإطلاق، ما يمكن أن يفعله بابا يملك المال والجنود. فباستخدام الدوق بورجيا كأداة، والغزو الفرنسي كفرصة، نجح في تحقيق كل تلك الأشياء التي ذكرتها عند الحديث عن مشروع الدوق بورجيا.

ورغم أن هدف الدوق كان تحقيق أهدافه الشخصية وتعظيم مركزه هو وليس الكنيسة، فإن إنجازاته زادت من مكانة الكنيسة، حيث اعتُبرت كل نجاحاته ضمن ميراث الكنيسة بعد وفاة ألكسندر وعزل الدوق.

ثم جاء يوليوس الثاني، ليجد الأمور في وضع أفضل، حيث وجد الكنيسة قوية غنية وتملك كل روماچنا، وخالية من بارونات روما

المتعصبين الذين جعلتهم ضربات ألكسندر عاجزين تمامًا. كما وجد أن الطريق ما زال مفتوحًا ليطبق أساليبه في تجميع الأموال، وهي التي لم تكن مستخدمة حتى زمن ألكسندر، وأهمها بيع المناصب الكنسية. ولم يكتف يوليوس بملاحقة الأهداف نفسها التي سعى إليها سلفه، بل عمل على توسيعها إلى أبعد من ذلك. فقد سعى إلى غزو بولونيا، وهزيمة البنادقة، وطرد الفرنسيين من إيطاليا؛ وقد نجح في كل هذه المشاريع، التي تستحق الثناء لأنه أنجزها كلها من أجل الكنيسة وليس من أجل منفعة شخصية.

كانت الأهداف الرئيسية للبابا يوليوس الثاني هي: التوسع الإقليمي للكنيسة وطرد الفرنسيين من الأراضي الإيطالية (ولذا غزا بولونيا في عام ١٥٠٦ وهزم البنادقة في عام ١٥٠٩). وقد أبقى حزبي أورسيني وكولونا محصورين في الظروف الضعيفة التي وجدهما فيها؛ ورغم أنه كان من بينهم زعماء قادرين على التمرد، إلا أن شيئين أبقياهم تحت السيطرة: الأول هو قوة البابا يوليوس التي أرعبتهم؛ والثاني هو أنه لم يكن بينهم كرادلة يمكن أن يثيروا صراعًا فصائليًا داخل الكنيسة. وعادة، لا ينعم هذان الحزبان بالسلام أبدًا عندما يكون بينهما كرادلة، لأنهم هم الذين يغذون الصراعات الحزبية في روما وغيرها؛ ومن ثم يضطر البارونات إلى الانخراط في الصراع. وهكذا تنشأ الخلافات والنزاعات بين البارونات بسبب طموح الكرادلة.

ثم جاء قداسة البابا ليون فوجد أن البابوية قوية جدًا، فرأى أنه كما جعلها أسلافه عظيمة بقوة السلاح، فبإمكانه جعلها أكثر عظمة واحترامًا من خلال الإيمان. وبالفعل، كان صلاحه وفضائله التي لا تعد ولا تحصى. من الأسباب التي جعلت الكنيسة أكثر هيبة ووقارًا في أعين الناس[1].

١. البابا ليون العاشر (١٥١٣-١٥٢١)، عم لورينزو دي ميديتشي، الذي كُرِّس له كتاب الأمير. وقد كتب المؤلف هذه السطور بعد انتخاب البابا بفترة وجيزة.

احذر.. فالاعتماد على البعض قد يضعفك!

١٢

صفات المقاتلين ووسائل القتال

بعد البحث الطويل الذي قدمناه في السمات الواجب توافرها في الإمارات، وبعد إيضاحي الجزئي لأسباب تطورها أو إخفاقها والطرق المختلفة التي التجأ إليها الكثيرون للفوز بأمثالها، أجد من الضروري أن نولي اهتمامًا خاصًا بالوسائل الدفاعية والهجومية، التي يمكن استعمالها في كل منها. وقد أسهبت في الشرح سابقًا أن على الحاكم أن يدعم حكمه بالقوة والجند والقواعد وإلا فإن مصيره الدمار. وبالطبع أفضل تلك الأسس بالنسبة للدول، عتيقة كانت أو جديدة، هو أن يكون لها قوانين صارمة وأسلحة شديدة، والقوانين تطبق حيث تتوافر الأسلحة الفتَّاكة، ولن أتكلم هنا عن القوانين، بل سأصب اهتمامي على القوات فحسب.

القوات التي يعتمد عليها الأمير في الدفاع عن إمارته، إما أنها قواته الخاصة أو مرتزقة أو تابعين احتياطيين، أو مزيجًا بين هذا وذاك. فأما المرتزقة فإنها قوات غير ذات فائدة، بل في وجودها تكمن المخاطر. وإذا اعتمد عليهم حاكم في حماية دولته، فالشعور بالأمان لن يصادفه نهائيًا، لأن تلك القوات في أغلب الأحيان شراذم متفرقة

ليست على قلب رجل واحد، طامحة لا يخضعها نظام ولا تخشى الرب ولا تصون عهدًا أو ميثاقًا، ترتدي زي البسالة وقت الرخاء، ثم تستبدل به رداء الجبن أمام الأعداء، ولا أمانة في تعاملها، هي اليوم معك، وغدًا مع خصمك. والحاكم الذي يكون اعتماده على هؤلاء المرتزقة، ربما يسوِّف دماره الحتمي .

وهكذا فإن ذلك الحاكم يتعرض أيام السلم للابتزاز من المرتزقة، وفي أيام الحرب للقهر من العدو. والسبب في ذلك هو انعدام الولاء والانتماء الذي يؤدي بهم إلى الثبات في ساحة القتال، لا شيء يعنيهم سوى الراتب، وهو ثمن –مهما بلغ- أقل قيمة من أن يدفعهم إلى التضحية بذواتهم من أجلك. وعلى هذا، فإنهم جنودك في الرخاء، ومصدر ضعفك في الشدة، وعند الحرب، إما أن يرفضوا القتال أو يعمدوا إلى الفرار. ولا أجدني في حاجة إلى ضرب الأمثلة وسردها، وذلك لكون الدمار الذي أصاب إيطاليا، والذي نراه الآن بأعيننا، نتج عن أمر واحد لا غير، وهو اتكالها لسنوات ممتدة على جيوش المرتزقة .

وليس من شك أن تلك الجيوش قد عاونت بعض الأفراد، على بلوغ الحكم في بعض الحالات، وأظهرت بعض البسالة فيما بينها. ولكن عند احتدام القتال مع غاز شرس، أكدت تلك القوات على خذلانها وقلة فائدتها.

هذه القوات هي السبب الأساسي في نكبتنا، فحين لجأنا إليها أُتيح للملك شارل الفرنسي استعمار إيطاليا بأصابع الطباشير[1]. كل من ينسب هذا الفشل إلى أخطائنا ينطق الحقيقة والصواب. ولكن الأخطاء التي يذكرونها ليست هي الحقيقية، بل تلك التي ذكرتها. ولكونها جريرة الحكام ومن فعالهم فقد ذاقوا الجزاء الأوفى من المذلة التي أوجبتها هذه الأخطاء.

ولتسمح لي يا مولاي أن أطيل في شرح مثالب تلك الجيوش: فزعماؤها إمَّا رجالٌ على أعلى درجات الكفاءة القتالية، أو على نقيض ذلك. فإذا كانوا من الأكفاء بالفعل، فليس باستطاعتك الاعتماد عليهم لأنهم دومًا سيتطلعون لإنجاز مجد شخصي لذواتهم، إمَّا عن طريق اضطهادك أنت، آمرهم ومالكهم، أو اضطهاد الآخرين من متمردين وخارجين عن طاعتك. وفي الحالين، سيكونون السبب الأساسي في دمارك .

وإذا رد أحدهم على كلامي قائلًا إن هذا هو حال كل من يمتلك قوات، سواء كانت من المرتزقة أو غير المرتزقة، فسأجيب بأن السيطرة على القوات يجب أن تكون في أيدي الأمراء أو قادة الجمهوريات. فيجب على الأمير أن يتولى المسؤولية كقائد يجمع أزمَّة الأمور في يديه؛ ويجب على الجمهورية أن تعين أحد مواطنيها كقائد يفعل

[1] واجه تشارلز الثامن مقاومة ضئيلة في عام ١٤٩٤، مما دفع البابا ألكسندر السادس إلى القول إن الفرنسيين جاءوا وبأيديهم الطباشير لتحديد مساكن من سيقتلون.

الشيء نفسه. وإذا ثبت أن هذا الشخص المعين غير كفء، فيجب استبداله فورًا، أما إذا ثبت نجاحه، فيجب تحجيم اختصاصاته وسلطاته في إطار القانون .

وقد علمتنا تجارب التاريخ أن الإمارات والجمهوريات التي تكون قواتها من خاصة شعبها هي التي تحقق إنجازات عظيمة، في حين لم تجلب قوات المرتزقة سوى الأذى. فضلًا عن ذلك فإن الجمهورية التي تكون قواتها من شعبها أقل عرضة للخضوع لأحد مواطنيها من الجمهورية التي تستخدم قوات أجنبية.

ولقد نعمت روما وأسبرطة بالحرية قرونًا عدة. وكانت لهما جيوشهما القوية. والآن يتمتع السويسريون بتسليح ممتاز ويتمتعون بحرية كبيرة. ومن بين القدماء، استخدم القرطاجيون، على سبيل المثال، المرتزقة وكادوا يصبحون أسرى للمرتزقة أنفسهم بعد حربهم الأولى مع الرومان، أي كاد المرتزقة يصبحوا أسيادهم، على الرغم من أن هذه القوات كانت تحت قيادة المواطنين. وبعد وفاة إبامينونداس، عيّن الثيبيانيون فيليب المقدوني قائدًا لهم، وبمجرد انتصاره، حرمهم من حريتهم. وبعد وفاة الدوق فيليب، استأجر الميلانيون فرانشيسكو سفورزا لمحاربة البنادقة؛ ومع ذلك، بمجرد هزيمتهم في كارافاجيو، انضم إليهم لإخضاع أرباب عمله، الميلانيين أنفسهم. تحالف مع البنادقة على أهل ميلان، الذين استأجروه من قبل. وكان والد سفورزا ذلك، وهو بالمثل جندي، يعمل في خدمة

جيوفانا ملكة نابولي، فتخلى عنها على حين غرة تاركًا إياها بلا أدنى قوة عسكرية، ما أجبرها على الارتماء في أحضان ملك الأراغون .

إذا كان البنادقة و الفلورنسيون قد وسعوا أراضيهم في الماضي باستخدام المرتزقة الذين لم ينقلبوا عليهم، بل دافعوا عنهم إلى النهاية، فالسبب في ذلك هو أن الفلورنسيين محظوظون: ربما لأن المرتزقة خافوا أن يفعلوا ذلك، أو أن مطامحهم اتجهت إلى مكان آخر.. وربما الولاء، فقد كان السير جيوڤاني أوكوت[1] هو القائد الذي لم يحاول الهيمنة، مع العلم أن ولاءه وتفانيه لم يبرز، لأنه لم ينتصر. ولكن الكل يعرف أنه لو أراد لاستطاع فرض هيمنته على فلورانس. ولقد كان آل سفورزا يعارضون آل براتشيسكي على الدوام، وكان كل منهما ينظر إلى الآخر بعين الريبة والشك. وفي النهاية وجه فرانشيسكو سفورزا طموحاته نحو مقاطعة لومبارديا، في حين وجه آل براتشيو طموحاته ضد الكنيسة ومملكة نابولي. ولكن دعنا يا سيدي ننتقل إلى الأحداث الأكثر حداثة...

لقد اختار الفلورنسيون باولو فيتيلي، قائدًا لجيوشهم، وهو رجل يتميز بالفراسة والبصيرة الجيدة، فعلا بواسطتهم من مركز متواضع، إلى أعلى المستويات. وإذا كان باولو قد هيمن على بيزا، فليس في استطاعة أحد أن ينكر احتياج الفلورنسيين إلى صداقته،

---

[1] جيوفاني أوكوت، أو السير جون هوكوود، قائد إنجليزي ظل في خدمة فلورنس حتى وفاته في عام ١٣٩٤ .

إذ لو غدا يخدم أعداءهم، فلن تتوافر لديهم السُّبل لمقاومته، ولو استأجروه، لصاروا مجبرين على طاعته .

أما البنادقة، فبدراستنا لما حققوه من تطور، يظهر لنا أنهم ساروا بثبات وأمان ونجاح، عندما كان اعتمادهم في حروبهم على قواتهم، أي قبل بدء إنجاز مشروعاتهم في البر الإيطالي، وقاتلوا ببسالة، معتمدين على نبلائهم وشعبهم المذخر بالعتاد، ولكنهم عند بدء قتالهم في البحر هجروا تلك الفضيلة وحذوا حذو النسق الإيطالي المُتَّبَع، لم يكن لدى قادتهم ما يهابونه في بداية فتوحاتهم، وذلك راجع لعدم اتساع رقعة ممتلكاتهم، وكانت سمعتهم في قمتها، ولكن بعد اتساع رقعة الممتلكات، بالأخص بقيادة كرماغنولا، تجلى لهم الخطأ الذي وقعوا به، ووعوا أنه غدا في قمة البأس بعد انتصاره على دوق ميلان. ولما كان عندهم العلم، بفتور همته في القتال من أجلهم، رأوا ضرورة الابتعاد عن أي فتوحات جديدة تحت قيادته، ولكن على الرغم من عدم رغبتهم فيه، عجزوا أن يستغنوا عن خدمته لهم، خوفًا من فقد ما نالوه. ووجدوا ختامًا أن السبيل الأمثل للتخلص منه هو إعدامه .

ثم أمسك زمام جيوشهم بعده رجال أمثال بارتولومبو دابير غامو، وروبرتو داسان سيفيرينو، والكونت دي بيتيغليانو، والخسران من أمثال هؤلاء يفوق التوقع من الكسب، وهذا ما وقع فعلًا في فايلا حيث خسروا في يوم واحد ما ناله البنادقة بالكد والتعب على مدار

ثمانية قرون، وهذا لأن تلك القوات على الأغلب تكون بطيئة في نيل المكاسب، وخاطفة السرعة ومفاجئة إلى درجة الإعجاز في تكبد الخسائر. وبما أني عرضت تلك الأمثلة من إيطاليا التي يتسيدها المرتزقة منذ سنوات ممتدة، فإني سأنتقل إلى الإسهاب في التكلم عنهم، حتى يتسنى لنا إيجاد الدواء الأنسب واللازم لمعضلاتهم بمعرفة أصولهم التي ينتمون إليها وأسلوب تطورهم.

وعليك الوعي، أنه في العصور المتأخرة، عندما بدأت سيادة الإمبراطورية تذبل في إيطاليا، وأخذت البابوية تزداد اتساعًا في سلطاتها، كانت إيطاليا مفتتة إلى عدد كبير من الدول. وقامت مدن عديدة بالتمرد والثورة على نبلائها الذين كانوا يستمدون سيادتهم من الإمبراطور، ويسيطرون على شؤونها، بإخضاعها لاستعبادهم. وأخذت الكنيسة تؤجج تلك المدن الفائرة، رغبة منها في زيادة سلطاتها الزمنية. وغدا أحد الرعية في أكثر من مدينة حاكمًا لها. وهكذا عند سقوط إيطاليا بالكلية في أكف الكنيسة، وفي أكف بعض الجمهوريات، كان رجال الدين وسواهم من الرعية غير معتادين على حمل السلاح، فبدأوا باستئجار الغرباء كجند لخدمتهم.

وكان أول من قام بإدخال تلك البدعة من المتطوعة أو المرتزقة، البريجو داكامو، المواطن في روماچنا. وكان براشيو وسفورزا، اللذان صارا فيما بعد من حكام إيطاليا، من بين كثر ممن تمرنوا على كفيه، وورائه كل هؤلاء الذين ما زالوا إلى الآن يتولون قيادة جيوش إيطاليا،

حيث أنتجت بسالته غزو شارل الفرنسي لإيطاليا، ودهسها بأقدامه، وسقوطها في براثن لويس، وتعرضها لطغيان فرناندو (الأسباني)، وإذلال السويسريين .

وكان النسق الذي انتهجه قادة المرتزقة في الدرجة الأولى يقوم على الإعلاء من شأن أنفسهم عن طريق التقليل من قيمة المُشاة، وقد قاموا بهذا، لأنهم لا بلدان لهم، ولأنهم يحيون على رواتبهم وما يتكسبونه، وليس باستطاعة جنود المُشاة التقليل من بأسهم العسكري، وهم أعجز من أن يدفعوا رواتب لعدد هائل منهم. ولذا فقد اقتصر استخدامهم على الفرسان، الذين، رغم ضآلة عددهم، يلقون الترحيب والتوقير الزائد، ويتحصلون على أعلى الرواتب، ولذا درجوا على التقليل من قيمة المُشاة، حتى إن الجيش الذي بلغ عدده ما يقارب عشرين ألف جندي لا يزيد ما به من المُشاة عن الألفين. واستعملوا كل وسيلة مُستطاعة لحماية ذواتهم وجنودهم من المتاعب والمشاق والمخاوف، متحاشين قتل بعضهم البعض في المعارك، مقتصرين على أخذ الأسرى طمعًا في الفدية. وكانوا لا يهاجمون الحصون في الليل، كما أن المقيمين في الحصون كانوا لا يهاجمون المقيمين في الخيام في جنح الظلام، ولا يقيمون حول معسكراتهم أية كمائن أو خنادق، ولا يخوضون لجَّات القتال في الشتاء. وقد نصت أنظمتهم العسكرية على كل تلك الأحوال وتبنوها، كما أسلفنا، ليتحاشوا عن طريقها المتاعب والمخاطر وهكذا قللوا من شأن إيطاليا، وألحقوا بها الرِّق والذل.

"وقتل داود جالوت."

١٣

القوات الموالية

ما حك جلدك مثل ظفرك. القوات الذاتية هي درعك الحامي وحجر داود. أما الاستعانة بالأغراب فضررها أكبر من نفعها، هذه القوات بارعة الدخيلة جديرة بالثقة في ملاحقة مصالحها الخاصة ورواتبها، لكنها غالبًا ما تكون كارثية بالنسبة لمن يستعيرها، فإن هي انتصرت فسوف تكون أسيرًا لها، وإذا انهزمت فسينهار كل شيء. لقد استعان البابا يوليوس الثاني بقوات خارجية في حملته على فيرارا عندما لاحظ عدم فاعلية مرتزقته، فلجأ إلى قوات مساعدة من فرديناند ملك أسبانيا فانتقل من سَيِّئ لأسوأ.

ورغم أن التاريخ القديم مملوء بالأمثلة التي تثبت هذا، فإنني سأكتفي بالمثال الجديد الذي قدمه البابا يوليوس، إذ كانت هذه فعلته الأسوأ. فمن أجل الفوز بفيرارا، وضع نفسه تحت رحمة الأغراب بالكامل. ولم ينقذه من عواقب قراره غير الحكيم إلا حظه الطيب، فعندما انهزمت القوات المساعدة التي استغاث بها في رافينا، وصل السويسريون، وعكس كل التوقعات، بدلًا من أن يوقعوه في الأسر، اكتفوا بطرد الغزاة، وهو على رأسهم. ولمهاجمة جيرانه، أرسل إمبراطور القسطنطينية عشرة آلاف تركي إلى اليونان.

وعندما انتهت الحرب، رفضوا المغادرة. وكانت هذه بداية استعباد اليونان من قبل الكفار.

كل من يرغب في أن يتضمن انتصاره خسرانًا فليستخدم جيوشًا غريبة لتساعده، لأنهم أكثر خطورة من العدو، ومعهم يكون الفشل مضمونًا، يقسمون كيان الجيش إلى فرق، وقد ينقلبون عليك ككتلة واحدة في أية لحظة.. أما المرتزقة –الجنود الذين تستأجرهم بأموالك- فليسوا على قلب رجل واحد، وربما يحتاجون وقتًا أطول لإيذائك. ولأختصر لك الأمر: المرتزقة شرٌ موقوت، يقتلون لقاء المال فيتبعون كل ناعق، متحدون فقط حول راتبهم ومصالحهم. يكمن خطر الذين تجلبهم من هنا وهناك، في تفرقهم، أما القوات المساعدة فيكمن الخطر في تجمعهم.

ولذلك، كان الأمراء الحكماء يتحاشون استخدام مثل هذه القوات ويعتمدون على قواتهم الأصيلة؛ وكانوا يعتقدون أنه من الأفضل أن تخسر بقواتك من أن تفوز بقوات مستأجرة، معتبرين أن الفوز بجند غيرهم ليس نصرًا حقيقيًا، وسأسمح لنفسي بالاستشهاد ببورجيا وأفعاله مرة ثانية للتوضيح.

دخل بورجيا روماچنا برفقة قوات مساعدة فرنسية. واستولى على إيمولا وفورلي. ولكن بعد ذلك، شعر من جهتهم بالقلق. وحين رأى أنهم لم يعودوا جديرين بالثقة، تحول إلى استخدام المرتزقة، معتقدًا أنهم أقل خطورة، فاستأجر أورسيني وفيتيلي. وسرعان ما

اكتشف الدوق أنهم مترددون عديمو الإخلاص، ومريبون في التعامل معهم، فتخلص منهم ولجأ إلى قواته الخاصة. ومن السهل أن ندرك مدى الاختلاف بين أنواع القوات المختلفة من خلال ملاحظة الأداء العسكري للدوق عندما استعان بالقوات الفرنسية، وعندما لجأ إلى مرتزقة أورسيني وفيتيللي، ثم عندما اعتمد اعتمادًا كليًا على قواته الخاصة تحت قيادته. لقد اختلفت مكانته أيضًا بين القواد، رأى الجميع أنه يمتلك زمام ساحة القتال بالكامل بقواته الخاصة.

لقد كنت أنوي ألا أبتعد عن الأمثلة الإيطالية الحديثة؛ ولكنني لا أريد أن أغفل حالة هيرو السيراكوزي، حيث إنني ذكرته في وقت سابق. وكما قلت، عندما عيَّن السيراكوزيون هذا الرجل قائدًا للجيوش، أدرك بسرعة أن قواتهم المرتزقة، التي تشبه قواتنا الإيطالية المُستأجَرة، لا قيمة لها، وأن شرها أكبر من نفعها، ووجد أنه لا يستطيع الاحتفاظ بها بأمان ولا تسريحها بإحسان، فأمر بتقطيعها إلى أشلاء ففرقهم ليقضي على جماعتهم فأفشل بالفرقة مؤامراتهم. وبعد ذلك خاض الحرب معتمدًا فقط على قواته وجنده.

وأود أن أذكر لجلالتكم قصة رمزية أخرى من العهد القديم، فعندما انضم داود إلى طالوت متطوعًا لمقاتلة جالوت العملاق، أعطاه الملك سيفه ودرعه على سبيل التشجيع، لكنه رفضهما بعد أن جربهما فلم يشعر بالراحة، واختار مواجهة العدو بمقلاعه

وأحجاره. وقتل داود جالوت. الشاهد أن سلاحك الذي تعرفه هو ما ينصرك، أما الغريب فكأنه ذراع أخرى تحاول أن تضيفها لجسدك فتسقط أو تعوقك. فانظر إلى رجل آمن بقوته –ولو كانت حجرًا- مفضلًا إياها على قوة أخرى منفصلة –ولو كانت سيف الملك ودرعه.

ولأضرب لك مثلًا معاصرًا لنأخذ من قصصهم عبرة:

أدرك شارل السابع، والد لويس الحادي عشر، بعد أن استخدم ثروته وبراعته في حرب الإنجليز ضد فرنسا، ضرورة امتلاك أسلحته الخاصة فأصدر أوامره بإنشاء وحدات من سلاح الفرسان والمُشاة المحليين، فماذا كانت النتيجة؟ استطاع شارل السابع بقوات المشاة أن يدحر الإنجليز وأنهى حرب المائة عام بنجاح ولم يترك في أيدي الإنجليز سوى مدينة كاليه.

وعلى النقيض تصرف ابنه لويس، إذ ألغى في وقت لاحق قوات المُشاة المحلية وبدأ في تجنيد المرتزقة السويسريين. فماذا حدث؟ حدث ما رأيناه بأعيننا، فإن هذا الخطأ، الذي كرره آخرون، هو السبب وراء الخطر الذي تواجهه المملكة في الوقت الحاضر. فمن خلال تعزيز سمعة السويسريين، أضعف الملك معنويات قواته؛ ومن خلال إلغاء قوات المشاة، جعل سلاح الفرسان يعتمد على الأسلحة الأجنبية. وبعد أن اعتاد الفرنسيون القتال بجوار القوات السويسرية، يعتقدون الآن أنهم لا يستطيعون الفوز دونها. وبسبب

هذا الخنوع، ها هم الفرنسيون؛ الآن لا يستطيعون قيادة السويسريين ولا يستطيعون التحرك خطوة من دونهم.

ولنكتف بهذا المثال المؤلم، لأن مملكة فرنسا كانت لتكون مملكة لا تُقهر لو تم الحفاظ على نظام الملك شارل السابع. ولكن الرجال الذين لا يتمتعون بالحكمة الكافية يتصرفون بحماقة لتحقيق مكاسب فورية دون أن يدركوا السُّم الذي يحمله مكسب عاجل زائف في المستقبل، أو كالحمى الخبيثة، لا تظهر عوارضها إلا وقد سيطرت على الجسد كاملًا.

إن الإنسان الذي لا يبصر العيوب الظاهرة في بدايتها لا يملك الحكمة الحقيقية، وتلك لا ينعم به إلا القليلون. ومن يبحث عن السبب الأول لانهيار الإمبراطورية الرومانية سوف يجد أن ذلك بدأ باستئجار المرتزقة. ومنذ تلك النقطة بدأت قوة الإمبراطورية الرومانية في الانحدار، وانتقلت كل الشجاعة التي فقدتها إلى القوط.

نستنتج من كل هذه الأمثلة أن أي إمارة لن تكون آمنة ما لم تمتلك رجالها الخواص الذين يدافعون عنها. بل إنها ستكون تحت رحمة القدر ما دامت لا تملك قوة محلية جديرة بالثقة عند الشدائد. وكالرأي المعبر عنه دائمًا من قبل الحكماء هو: "لا يكون المرء واهنًا خائرًا إلا إذا كانت إمكاناته الذاتية عاجزة عن حمايته.".

وما أعنيه هنا بالقوة الذاتية للإمارة هو القوة المتألفة من رعايا أو مواطنين أو تابعين أصليين. أما بقية القوى فهي إما مرتزقة أو

مساعدة. والطريقة التي يمكن بها تنظيم القوات الذاتية للأمة من السهل أن نتقنها إذا ما درسنا أساليب الأفراد الأربعة الذين ذكرتهم في الأمثلة السابقة، ولاحظنا كيف قام فيليب، والد الإسكندر الأكبر، والعديد من الحكام والجمهوريات الأخرى بجمع قواتهم وتنظيمها. وأنا أتفق معهم تمامًا في أساليبهم.

المال قد يشتري الجند، لكنه لا يشتري الولاء.

١٤

مهارات الأمير

لا ينبغي للأمير ولا يجدر به أن يتقن شيئًا غير الحرب، أساليبها وخططها، مهاراتها وبلوغ الكفاية فيها، فبها ترسخ المكانة ويرهب الأعداء، وبها تكتسب الثقة على اقتناص ما شئت من ممالك. وهي لا تمنح الرسوخ للأمير الوارث للحكم فقط، بل هي ما تبلغ بالرجال المكانة وتنقلهم من المرتبة المتواضعة إلى صفوف القادة البارعين. أما الأمراء الذين ينغمسون في ملذات الحياة وقطف ثمار السلطة لاهين عن التدرب والاستعداد، فأولئك سرعان ما يفقدون كل شيء، والسبب الأول لفقدانهم سلطانهم، هو عدم إجادتهم لفنون الحرب.

لقد ارتقى فرانشيسكو سفورزا من مرتبة المواطن العادي إلى دوق ميلانو بفضل سعيه الدؤوب لإتقان فنون السلاح، وتحول أبناؤه من دوقات يملأون الأعين إلى مجرد مواطنين عاديين نتيجة لتجنبهم المشاق العسكرية وإيثار الحياة الرغدة. انظر كيف انتهى أبناؤه وأحفاده؛ فقد اغتيل جاليتسو ماريا، وعُزل جان جاليتسو بواسطة عمه لودوفيكو إل مورو، ثم عُزل لودوفيكو إل مورو نفسه بعد فترة وجيزة. ذلك هو العار الذي يجب على الأمير أن يتقيه. لا

يمكنك أن تتوقع أن ينصاع شخص مسلح لشخص غير مسلح، ولا يمكن أن تكون العلاقة ندية بين من يملك السلاح ومن لا يملكه.. ولا يمكن أن ينام المرء مطمئنًا وفوق رأسه من يحمل السلاح. ذلك هو رباط الخيل الذي يرهب الأعداء، وهذا ما يمنح الطمأنينة. كما أن الأمير الذي يجهل الأمور العسكرية سوف يجد، إلى جانب الأمراض الأخرى المذكورة سابقًا، أنه لا يستطيع أن يحظى بتقدير جنوده ولا يستطيع أن يثق بهم.

ولذلك، لا ينبغي للأمير أن يحوِّل انتباهه عن التدريبات والخطط العسكرية. بل ينبغي عليه أن يكرِّس نفسه لها في وقت السِّلم أكثر من وقت الحرب؛ ويمكنه أن يفعل ذلك بطريقتين: من خلال العمل ومن خلال الدراسة. وفيما يتعلق بالعمل، بالإضافة إلى الحفاظ على انضباط قواته ولياقتها، يجب عليه أن يكرس نفسه للصيد، والذي من خلاله يعتاد الجسد على المشاق. وفي الوقت نفسه يدرس تضاريس الأماكن - المنحدرات والجبال، فتح الوديان، وترتيب السهول، وطبيعة الأنهار والمستنقعات - مع تخصيص الكثير من الاهتمام لوضع خطط اقتحام كل مكان والدفاع عنه على حدة.

إن هذه المعرفة مفيدة له بطريقتين. أولاهما، يتعرف على طبيعة بلاده ويتعلم كيف يمكن الدفاع عنها؛ والثانية، من خلال هذه المعرفة، يمكنه بسهولة فهم طبيعة أي مكان آخر قد يضطر إلى استكشافه لاحقًا. على سبيل المثال، فإن التلال والوديان والسهول

والأنهار والمستنقعات في توسكانا تشبه في بعض النواحي تلك الموجودة في مقاطعات أخرى. وبالتالي، من خلال فهم تضاريس مقاطعة واحدة، يمكنه بسهولة اكتساب فهم المقاطعات الأخرى. ويفقد الأمير الذي يفتقر إلى هذه القدرة إلى الشرط الأول للقائد، لأنه من خلال هذا يتعلم كيفية تحديد موقع العدو، واختيار المقر، ومهارة التقدم نحو العدو، وكيفية نشر جنوده، والقدرة على حصار المدن.

ومن بين الأسباب الأخرى التي جعلت المؤرخين يشيدون بـ"فيلوبمين"[1]، زعيم الآخيين، أنه في وقت السلم لم يكن يفكر في شيء إلا في إدارة الحرب؛ وعندما يكون خارجًا في الريف مع أصدقائه كان يتوقف ويسألهم: "إذا كان العدو على هذا التل وكان جيشنا هنا، فمن الذي سيكون له الميزة؟ كيف يمكننا التقدم نحوهم بشكل جيد؟ إذا أردنا التراجع، فكيف سنفعل ذلك؟ وإذا تراجعوا، فكيف سنلاحقهم؟" وفي سيره، كان يضع أمامهم العراقيل التي قد تواجههم. وكان يستمع إلى آراء أصدقائه ثم يقدم رأيه ويدعمه بالأسباب. وهكذا، وبفضل هذه المداولات المستمرة، عندما كان على رأس جيشه، لم تكن هناك مشكلة يمكن أن تنشأ دون أن يكون لديه حل لها، ذلك لأنه دربهم وتدرب معهم على جميع الفرضيات.

فيلوبومين (٢٥٣-١٨٣ قبل الميلاد)، الذي انتُخب مرارًا وتكرارًا قائدًا عامًا للاتحاد الآخي؛ أطلق عليه بلوتارخ لقب "اليوناني الأخير".

أما فيما يتعلق بالدراسة، فينبغي للأمير أن يقرأ التاريخ ويتأمل في سير الرجال البارزين، ويلاحظ كيف تصرفوا في الحرب، ويدرس أسباب انتصاراتهم وهزائمهم، وبالتالي يتعلم كيف يحاكي النصر ويتجنب الهزيمة. وفوق كل شيء، ينبغي له أن يفعل كما فعل بعض الحكماء، فيبدأ في اتخاذ أحد الأبطال مثلًا أعلى، فيقلد أحد أسلافه المشهورين الذين يذكر التاريخ أعمالهم وتصرفاتهم إلى الأبد. كما يُقال إن الإسكندر قلَّد أخيل، وقيصر قلَّد الإسكندر، وسكيبيو قلَّد كورش.

إن من يقرأ سيرة زينوفون عن كورش يدرك إلى أي مدى استمد سكيبيو مجده من تقليده، وإلى أي مدى كان متوافقًا مع ما كتبه زينوفون عن كورش فيما يتصل بالعفة والوداعة الإنسانية والكرم. وينبغي لكل أمير حكيم أن يتبع عادات مماثلة لهذه، وألا يستسلم للكسل في أوقات السلم، بل يسعى إلى تحويل أوقات الفراغ إلى فرص للربح في أوقات الشدائد. وعلى هذا فإنه عندما ينقلب عليه القدر فإنه يكون مستعدًا لمقاومته.

وقت السِّلم يا سيدي هو وقت الاستعداد، وما يتدرب عليه المقاتل في وقت الفراغ هو ما ينجيه عند القتال. والعرق في المران، يعصم الحر أن يُهان ويضمن للنصر أن يُصان.

بقاء الدولة أهم من بقاء الأخلاق.

١٥

المدح والذم

بقي لنا أن نتحدث عن الكيفية التي ينبغي على الأمير أن يعامل بها رعاياه وأصدقاءه، هل يتعامل بسجيته أم أن للأمر قواعد وأصولًا؟ لقد قُتل هذا الأمر بحثًا ووضعت فيه عشرات النظريات، وأخشى أن يُظن بي الغرور لأني لن أعبأ بكل ما سبق، وسأعالجه بعيدًا عن النظريات التي وضعها الآخرون. وبما أني سأكتب شيئًا عمليًا فسألتزم بالحقائق لا الأوهام، فكلهم تحدثوا عن مُثل عُليا وأجواء حالمة وأفكار أدبية خيالية بعيدة عن الطريقة التي يعيش بها الرجال، لدرجة أني شعرت أحيانًا أنهم لا يتحدثون عن بشر موجودين بالفعل بقدر ما هي شخصيات من عالم خيالي. هجروا ما ينبغي الحديث عنه إلى ما ينبغي تركه. يتحدثون عن الخير كأن الشر غير موجود.. لا شك أن الخيرية المُطْلَقة تعني الخراب العاجل. لذا ينبغي للأمير أن يهتم ببقائه أكثر من اهتمامه أن يكون صالحًا، وأن يستخدم قدرته على الشر أو يمتنع عنه حسب حاجة كرسيه.

وعلى هذا، فإذا تركنا الأوهام حول الأمراء جانبًا، ونظرنا إلى ما هو حقيقي فقط، فإنني أقول إنه عندما نتحدث عن الرجال (وخاصة

الأمراء، وهم الأكثر تعرضًا لوجهة نظرنا) فإننا نشير إليهم بصفات تجلب لهم الثناء أو اللوم. وعلى هذا فإن البعض يُطلق عليهم لقب كرماء والبعض الآخر بخلاء. السَّخاء والقتر، القسوة والرحمة، الثقة والريبة، التواضع والتكبر، العِفَّة والمكر والدهاء والعند والمرح والتدين ...

يعرف الجميع أنه من الجدير بالثناء أن يتمتع الأمير بكل الصفات الإيجابية المذكورة أعلاه والتي تعتبر رائعة؛ ولكن بما أنه لا يستطيع أن يمتلكها، ولا أن يلتزم بها بإخلاص، لأن الظروف البشرية لن تسمح بذلك، فيجب أن يكون حكيمًا بما يكفي لتجنب السمعة السيئة للرذائل، لا أن يكون خاليًا منها، فلربما اقتضت الضرورة أن نتسلح بالصفة المحظورة. ولا بأس في الحقيقة لو تجنبناها تمامًا. لاحظ أنني ذكرت أنني أتكلم عن واقع لا أوهام.

ولكن إذا لم يكن بوسعه أن يتجنب الصفات المحظورة، فلا داعي للقلق من ذلك. وعلاوة على ذلك، لا داعي للقلق إذا اكتسب سمعة سيئة بسبب تلك الرذائل التي من المرجح أنه لن ينقذ إمارته من دونها. فبالنظر إلى الحياة بمنطقية، فهناك مواصفات طيبة، على الرغم من أنها تبدو جيدة، فإنها ستؤدي إلى هلاكه إذا التزمها، ومواصفات أخرى، على الرغم من أنها تبدو شريرة، فإنها ستؤدي إلى سلامته وسلامة إمارته.

إذا لم تكن كريمًا، تظاهر بالكرم.

١٦

البخل والسَّخاء

بداية أقول إن الكرم صفة جميلة، لكن الاتصاف بها خطير. فأن يكون المرء كريمًا إلى الحد الذي يجعله يكتسب هذه السمعة أمر ضار. فإذا كان المرء معطاءً بحكمة، كما ينبغي أن يكون، فلن يُلاحَظ ذلك فيه، ولن ينجو من اللوم لكونه بخيلًا. ولكي يُعرَف المرء بالسخاء بين الناس، فقد ينجر إلى أشكال التفاخر، ونتيجة لذلك فإن أي أمير يفعل ذلك سيضطر إلى إنفاق موارده للحفاظ على سمعته. وسيضطر إلى إثقال كاهل شعبه بشكل غير ملائم باللجوء إلى الضرائب الباهظة وكل الوسائل الأخرى لجمع الأموال. وهذا سيجعله مكروهًا بين رعيته. ومع انحداره إلى الفقر، سيفقد احترام الجميع. وستكون النتيجة أنه بعد أن أثقل كاهل الكثيرين وكافأ القليلين، سيشعر بعيب وضعه عند أدنى علامة على المتاعب وسيُعرَّض للخطر. ولكن بمجرد أن يعترف بخطئه ويسعى إلى تصحيحه، فسوف يتم وصفه سريعًا بأنه بخيل.

ولذلك، فإن الأمير الحكيم، الذي لا يستطيع أن يتظاهر بالكرم على حساب شعبه لن يعترض على أن يعتقد الناس فيه البخل. ومع مرور الوقت، سوف يبدو أكثر كرمًا عندما يرون أنه بفضل بخلِه، قد وفَّر

احتياجاتهم، وأنه قادر على تلبية الحاجات الأساسية وتحصين دفاعاته ضد الهجمات، وأنه قادر على القيام بحملات دون إثقال كاهل شعبه. والطبيعي أنه سيبدو كريمًا في عين من لا يفرض عليهم الضرائب . وسوف يظهر بخيلًا تجاه من يحجب عنهم المنح.

لقد شهدنا في أيامنا هذه إنجازات عظيمة لم ينجزها إلا رجال اشتهروا بالبخل، بينما طُرد آخرون موسومون بالكرم من السلطة. وبعد أن استفاد البابا يوليوس الثاني من سمعته الطيبة في الفوز بالبابوية، لم يبذل أي جهد في الاحتفاظ بها، بل شن الحرب بدلًا من ذلك. ولقد خاض ملك فرنسا الحالي العديد من الحروب دون أن يفرض ضرائب على رعاياه لأنه كان يوازن بين النفقات الإضافية من خلال فضيلة البخل. ولم يكن ملك أسبانيا الحالي ليخوض مثل هذه الحملات ويفوز بها لو كان معروفًا بكرمه.

ولتلك الأسباب كلها، على الحاكم عدم الاهتمام كثيرًا بذيوع صيته بالشُّح، ذلك إن أراد تجنيب شعبه الجوع والسرقة، وأن تكون لديه المقدرة على الذود عنهم، والنأي بهم عن الفقر وما يلازمه من إذلال وإهانة، وألا يكون مجبرًا على سلب الخلق ثرواتهم ونقودهم، فالتقتير هو إحدى المثالب التي تمكنه من تثبيت الحكم.

وإذا قيل إن قيصر قد نال الإمبراطورية عن طريق جوده، أو إن العديد سواه، قد بلغوا أعلى المراتب بالكرم والعطاء، أو بادعائه على الأقل، فإني أجيب على هذا بقولي: إنك إما أن تكون حاكمًا، أو في

سبيلك إلى ذلك، وسيكون الجود في الوضع الأول ضارًا، أما في الثاني، فمن اللازم حتمًا أن يعتبرك الورى سخيًّا معطاءً. ولقد كان قيصر أحد أولئك الذين اشتاقوا لسلطة روما، ولكنه بعد أن تمكن من تلك السلطة، لو لم يوازن مصروفاته، لأضاع هذه الإمبراطورية بالكلية.

وإذا رد عليّ مجادلي قائلًا، إن ثمة عددًا غفيرًا من الحكام قد أنجزوا أشياء جليلة عن طريق جيوشهم، وكانوا مع هذا، يتصفون بالجود والعطاء. فإنني أجيبهم قائلًا: إن الأمير إما أن ينفق من ماله الخاص أو مال الرعية، ففي الحالة الأولى لا بد من أن يكون مقتصدًا، وفي الثانية لا بد أن يتمتع بقدر من السَّخاء. أما إذا كان يعيش على السلب والنهب وابتزاز ممتلكات الآخرين فلا بد هنا أن يكون جوادًا كريمًا سخيًّا معطاء، وزد من صفات الجود ما شئت.. وإلا لما اتبعته قواته. وما لا يمتلكه هو أو رعيته يجوز له أن يهبه بحرية كما فعل كورش وقيصر والإسكندر، لأنه يعطي من أموال غيره ويرفع بها قدره.

ولهذا فمن الأفضل أن تكون شحيحًا مقترًا، حتى لو كان ذلك يعرضك للتحقير بلا بغض، على أن تكون مُجبرًا بدافع سمعة الكرم إلى أن تغدو سارقًا نهَّابًا، مما يعرضك للاحتقار والبغض معًا.

الخوف هو الأساس الأكثر استقرارًا للحكم.

١٧

أيهما أفضل، أن تكون محبوبًا أم أن تكون مُهابًا؟

يتمنى كل أمير ألا يبدو قاسيًا. ومع ذلك، لا بد أن يحرص على تجنب إساءة استخدام لطفه. لقد اعتُبر بورجيا –الذي شنق وسحق وأباد- قاسيًا، لكن قسوته وحدت روماچنا وأعادتها إلى سابق عهدها ورونق مجدها، ونعمت بالسلام ونعم هو بالولاء.. وإذا اعتُبرت هذه النتيجة طيبة، فلا بد أن يُنظر إليه باعتباره ألطف كثيرًا من أهل فلورانس الذين سمحوا بتدمير مدينة بيستويا حتى لا يُنظر إليهم باعتبارهم قساة القلب. وسوف أضرب الأمثلة قريبًا لسيدي كي يعرف مقصدي.

إن الأمير ليبلغ الشأن العظيم إذا ارتفع فوق هذه الأنساق ولم يبال بتلك الاتهامات، فالحفاظ على ولاء الرعية ووحدتهم أهم. وبعد أن يردع خصومه مرة أو مرتين يكونوا عبرة لمن يعتبر ومن لا يعتبر، يبدأ في استخدام الرأفة الموزونة بحساب دقيق. وهو في ذلك خير ممن يتحلى باللطف واللين بما يسمح بنشوء الاضطرابات المؤدية إلى الفوضى. تلك الاضطرابات أشد ضررًا بالمواطنين وبالوطن من عدة إعدامات يتخلص بها الأمير من بضعة أفراد أو –لو شئت القول- جماعات. والحقيقة أنه يمكن للأمير الجديد أن يحظى بفرص أقل

في اتهامه بالقسوة متعللًا بحداثة الإمارة والمخاطر التي تحيط بالبلاد. وكما قال فيرجيل، على لسان ديدو: "إن الحاجة الماسة وحداثتي في الحكم يفرضان عليّ بعض الإجراءات لحماية حدودي من جميع الجهات". رغم ذلك، فنصيحتي أن يكون الأمير حذرًا في تصديق ما يسمع، مُتريثًا في عمله، ولا ينبغي له أن يخشى الأخطار الوهمية في وصف القسوة، وأن يتصرف باعتدال وحكمة مُتجنبًا الثقة المفرطة فيمن حوله، ومتجنبًا في الوقت نفسه البطش الأهوج الناتج عن انعدام الثقة.

وهنا يطرح السؤال نفسه: أيهما أفضل، أن يحبك الناس أم يهابوك؟ لا غرو أن الجمع بين الفضيلتين رائع. لكنه نادر إلى درجة الاستحالة، لذلك فإذا اضطررنا إلى الاختيار فسوف تكون أكثر أمانًا إذا خافك الناس بدلًا من أن يحبوك، ذلك أن الناس بصفة عامة جاحدون متقلبون مخادعون مراؤون فرَّارون عن الشدة طماعون عند المصلحة، فما دمت تعمل على تعزيز مصالحهم، فإن ولاءهم لك وكلهم طوع يديك، سيقدمون لك دماءهم وممتلكاتهم وحياتهم، بل وأطفالهم عندما تكون الحاجة إلى ذلك شديدة. ولكن عندما تنقلب الأمور، فسرعان ما يخلعون عباءتك، وينكرون وصايتك وربما احتشدوا حول قصرك ليقطعوا رأسك. والأمير الذي يؤسس أمنه على كلمتهم مفتقرًا إلى مصدر ثقة آخر، محكوم عليه بالهلاك؛ لأن الصداقات التي يتم الحصول عليها بمقتضى المصلحة، وليس الإخلاص ونبل الروح، يمكن اكتسابها بسهولة، ولكن لا يمكن

الاعتماد عليها وقت الحاجة. إن الرجال لأكثر جرأة على إهانة شخص يحبونه من إقدامهم على ذلك مع شخص يهابونه. وإن رابطة الحب سهلة القطع إذا اقتضت مصلحتهم، والناس أشرار بطبيعتهم.. لكن الخوف المدعوم برهبة الردع هو الذي يجعلهم منصاعين دائمًا.

وعلى الرغم من ذلك، فقد يتمكن الأمير أن يجعل من نفسه موضع خوف بطريقة تسمح له، إن لم يحظ بالحب، يهرب من الكراهية؛ لأن الحب والمهابة قد يمكنهما أن يسيرا معًا. وسيكون عليه في مثل هذه الحالة ألا يمس ممتلكات مواطنيه وأرواحهم ونساءهم، وإذا اقتضت الضرورة أن يعدم شخصًا ما، فعليه أن يفعل ذلك لسبب مناسب ومبرر واضح. وقبض أرواح الناس أهون عندهم من قنص الممتلكات، لأن موت الأب أسرع في النسيان من حصة الميراث. قد يتسامحون في القتل، لكنهم لن يتسامحوا أبدًا في مصادرة ممتلكاتهم.

والواقع أن أي أمير يعيش على نهب الرعية سيجد دائمًا الذرائع لذلك، فأسباب السلب لدى الأقوياء لا تنضب، أما سلب حياة الناس فرغم أن أعذاره أقل، إلا أن نسيانه أسرع.

والهيبة أكثر ضرورة في ساحات القتال، فحين يكون الأمير على رأس الجيش، فحينذاك، المهابة ثم المهابة، عليه ألا يبالي بسمعة القسوة، لأنه دونها لن يكون الجيش متماسكًا أبدًا ولن يكون صالحًا

لخوض الحرب. فمن بين الأعمال الرائعة التي قام بها هانيبال[1] أنه على الرغم من امتلاكه لجيش ضخم يتألف من مجموعة كبيرة ومتنوعة من الأجناس التي تقاتل في أرض أجنبية، لم تنشأ أي خلافات فيما بين القوات المختلفة أو بين القوات وقائدها، سواء في الأوقات الجيدة أو السيئة. ولا يمكن أن يكون سبب انعدام هذه الخلافات أي مصدر آخر سوى قسوته اللا إنسانية التي جعلته، إلى جانب صفاته القيادية غير العادية، موضع احترام دائم ورعب من جنوده. إن أي صفة أخرى لم تكن لتمنحه هذه النجاعة في قيادة هذا الحشد الرهيب المختلط. لقد أدانه المؤرخون قصيرو النظر بسبب بشاعة إجراءاته، لكنهم لم ينتبهوا إلى عظمة منجزاته.

والدليل على ضآلة أثر أي صفة أخرى فيه سنعرفه لو قارناه بسكيبيو[2] –وهو قائد عسكري استثنائي، ليس في عصره فقط، بل في كل عصور التاريخ السابقة واللاحقة- فعلى الرغم من تفوقه المدهش في الحرب، فقد تسبب تساهله المُفرط وسماحه ببعض الحريات أكثر مما يتطلب الانضباط العسكري في تمرد جنوده عليه في النهاية. ولقد وبخه فابيوس ماكسيموس في مجلس الشيوخ على

١ هانيبال باركا: جنرال قرطاجي لامع مشهور بحملاته العسكرية الرهيبة في الحرب البونيقية الثانية.

٢ كورنليوس سكيبيو: قائد عظيم استطاع هزيمة هانيبال في معركة زاما ٢٠٢ قبل الميلاد.

ذلك ووصفه بأنه مفسد الجيوش الرومانية. وعندما قام أحد مساعديه بتدمير الوكرين[1]، لم ينتقم سكيبيو منه ولم يتخذ أي إجراء لتصحيح وقاحة مساعده. إن الرجال ليحرصون على تبرير الخطأ بدلًا من تجنبه. وقد ألحقت طبيعة سكيبيو اللطيفة الضرر بجيشه وكرامته ومجده في نهاية المطاف. ولم ينقذ رقبته إلا أنه كان عضوًا في مجلس الشيوخ...

وبالعودة إلى السؤال حول أفضلية كون الأمير محبوبًا أو مهابًا، أرى إذا كان الناس يحبون ويكرهون وفق أهوائهم، ولكنهم يخافون كما يقرر الحاكم نفسه، فإن الأمير الحكيم لا بد وأن يعتمد على ما يستطيعه بنفسه وليس ما يمكن لغيره التحكم فيه .

مدينة يونانية

السياسة فن يتطلب مهارات خاصة، أهمها القدرة على التلاعب بالكلمات.

١٨

حفظ العهود

الإجابة المُتعجِلة عن هذا السؤال تُظهر كم هو جدير بالثناء أن يكون الأمير صادقًا يفي بوعده، متنزهًا عن المكر والخداع. ومع ذلك، فإن تجارب عصرنا تبرز النجاح الباهر لأولئك الذين تمتعوا بالدهاء في إطلاق المُسميات وإرباك العقول، وأن الغلبة تكون لهم في معظم الأحوال على الصادقين الموفين بعهدهم.

عليك أن تعرف أن هناك نوعين للقتال: قتال تحكمه الأعراف البشرية وقتال تحكمه القوة. الأول يخص الإنسان، والثاني تجده في عالم الحيوان. والأمير القوي هو من يحدد الأعراف ويخترع الأسباب كما يشاء وقتما يشاء، والأضعف عليه أن يتضرع للاحتمالات ويتقبل المآلات. وبما أن القتال بشكل إنساني قد لا يكون مجديًا في كثير من الأحيان، فمن الضروري أن نلجأ إلى النوع الثاني عند اللزوم أحيانًا، لأن الأهم دائمًا، هو تحقيق الأهداف.

وعلى الأمير أن يعرف النوع المناسب للحرب التي يخوضها، فليس كافيًا أن تُحشد القوات في الميدان، بل ينبغي على القائد أن يمتلك الحكمة والدبلوماسية وفهم طبيعة البشر. لقد علَّمنا كُتَّاب العصور القديمة هذا الدرس مجازيًا في تنشئة الحكام، عندما رووا كيف تم

إرسال أخيل والعديد من الأمراء القدامى الآخرين إلى كيرون القنطور ليرعاهم ويدربهم بدنيًا وذهنيًا. إن وجود مخلوق نصف إنسان ونصف حيوان كمعلم لهم يعني فقط أن الأمير يجب أن يعرف كيفية استخدام كل من الطبيعة الأولى والثانية، وأن الواحدة دون الأخرى لا يمكن أن تستمر.

ولما كان لزامًا على الأمير أن يعرف كيف يتقمص طبيعة الحيوان، فلا بد أن يتبنى طبيعة كل من الأسد والثعلب؛ لأن الأسد يعجز عن الدفاع عن نفسه ضد الفخاخ، والثعلب يعجز عن الدفاع عن نفسه ضد الذئاب. ومن ثم فلا بد أن يكون الأمير ثعلبًا في تمييز الفخاخ وأسدًا في طرد الذئاب. أما أولئك الذين يتقمصون شخصية الأسد وحدها فهم يفتقرون إلى الفهم. ومن هنا فإن الأمير الحكيم لا يستطيع ولا ينبغي له أن يفي بعهده عندما يكون ذلك ضد مصلحته وعندما لا تكون الأسباب التي دفعته إلى تقديم العهد سارية المفعول بعد الآن. إذا كان كل الناس طيبين، فتلك وصية سيئة، ولكن بما أنهم أشرار لا يلتزمون بالعهود، فلا حاجة بك إلى الوفاء بعهدك معهم. ولم يفتقر أمير قط إلى أسباب مشروعة لتبرير سوء فعلته. ويمكن للمرء أن يستشهد بمجموعة من الأمثلة الحديثة ويذكر العديد من معاهدات السلام، والعديد من الوعود التي أصبحت باطلة ومُلغَاة من قبل الأمراء الذين خانوا العهد. والأفضلية دائمًا لمن يعرف كيف يتقن دور الثعلب أفضل. ولكن مهارة إخفاء الذيل لا تقل أهمية عن تقمص دور الثعلب، فعلى المرء

أن يكون مخادعًا بارعًا. والناس بسطاء للغاية يميلون إلى تلبية الاحتياجات الفورية إلى الحد الذي يجعل المُخادِع لا يفتقر أبدًا إلى ضحايا. ومن الأمثلة الحديثة التي تثبت ذلك، هناك مثال واحد لن أغفله. لم يفكر البابا ألكسندر السادس قط في أي شيء سوى الخداع ولم يفتقر قط إلى شخص يمارسه عليه. لم يسبق أن كان هناك رجل يقطع وعودًا مُقنعة أو يقسم بها بجدية أكبر من هذا الرجل، ولم يلتزم بها إلا قليلًا مثله. ومع ذلك، كانت حيله تجلب دائمًا النتائج التي يرغب فيها، لأنه كان يعرف هذا الجانب من العالم جيدًا. لذلك فإن الأمير لن يحتاج في واقع الأمر إلى أن يتمتع بكل الصفات التي ذكرناها آنفًا، ولكن لابد وأن يبدو وكأنه يتمتع بها. بل إنني أذهب إلى حد القول إن امتلاكه لهذه الصفات والتمسك بها دائمًا من شأنه أن يكون ضارًا، في حين أن التظاهر بامتلاكها قد يكون مفيدًا. وهذا يعني أنه من الأفضل أن يبدو رحيمًا وفيًا نقيًا وصريحًا، ولكن ينبغي له أن يحافظ على تصرفات تجعله قادرًا على تغيير سلوكه عند الحاجة إلى ذلك. ولا يجب على الأمير -خاصة الأمير حديث العهد بالسلطة- أن يتمسك بهذه الفضائل، وذلك لأن الحفاظ على الإمارة يتطلب في كثير من الأحيان أن يتصرف ضد الرحمة، وضد الإيمان، وضد الإنسانية، وضد الصراحة، وضد الدين. وبالتالي، ينبغي له أن يكون مستعدًا للتغيير وفقًا لما تمليه عليه رياح القدر وتغيرات الظروف. وليلتزم إذا شاء بالخير قدر

استطاعته، ولكن يجب أن يكون مستعدًا للسير في الطريق المضاد إذا وجب الأمر.

وبناء على ما سبق، فنصيحتي أن يحرص الأمير على ألا ينطق بكلمة لا تتضمن الفضائل السابقة، ولا ينبغي له أن يظهر إلا كرجل مُحب للسلام والرحمة والإنسانية، فالناس عمومًا يحكمون بالعين وليس باليد، فكلهم يستطيعون رؤية الشيء، لكن قلة هم الذين يقتربون بما يكفي للمسه. إن كل الناس سوف يرون ما تبدو عليه؛ ولن يعرف من أنت إلا القليلون، ولن يجرؤ هؤلاء القليلون على معارضة الكثيرين الذين يقف جلال الدولة إلى جانبهم. وفي تصرفات كل الناس، وخاصة تصرفات الأمراء، فإن النتيجة هي التي تصدر الحكم حيث لا توجد محكمة استئناف. فليغز الأمير ما شاء من الإمارات؛ وسوف يُحكم على الأساليب المُستخدَمة دائمًا بأنها مُشرفة، وسوف يشيد بها الجميع. لأن الغوغاء دائمًا ما يتأثرون بالمظاهر والنتائج؛ والعالم يتألف من الغوغاء.

إن أحد حكام عصرنا، والذي من الأفضل ألا نذكر اسمه، لا يبشر إلا بالسلام والإيمان، ومع ذلك فهو عدو متطرف لكليهما؛ ولو كان مخلصًا لأي منهما، لكان قد خسر أكثر من مرة إما السلطة أو السمعة[1].

الحاكم الذي لم يذكر اسمه هو فرديناند الكاثوليكي (١٤٧٩-١٥١٦).

القوة لا تعني التخلي عن الرحمة.

١٩

البغض والاحتقار

وبعد أن ذكرنا من الصفات ما يجب أن يتحلى به الأمير وأهمية أن يكون مهاب الجانب، نود العروج على ذكر ما يجب تجنبه لكيلا يكون موضع كراهية الرعية. والكراهية ليس لها إلا مصدر واحد، هو مصادرة الأملاك واستحياء النساء. فالممتلكات والشرف أهم ما يقاتل دونه الرجال، أما بقية الخطايا فيمكن غفرانها بسهولة. أما الاحتقار فسوف يطارد الأمير إذا كان مخنثًا أو تافهًا أو جبانًا مترددًا. يجب الحذر من هذه الصفات كما تحذر السفن من الشعاب المرجانية؛ ويجب أن يتصرف بطريقة تجعله يتسم بالعظمة والجرأة والقوة والجاذبية. وفي التعامل مع الأفراد، يجب أن تكون قراراته لا رجعة فيها؛ ويجب أن يحافظ على وقاره بحيث لا يفكر أحد في خداعه أو تضليله.

إن الأمير يغلف نفسه بإطار الوقار سوف يحظى باحترام كبير؛ ومن غير المُرجَّح أن يتعرض شخص يحظى باحترام كبير للمؤامرة. كما أن الهجوم عليه نادر، ما دام معروفًا باحترام رعيته له. فالأمير لا يخاف إلا من أمرين: أحدهما داخلي يتعلق برعيته؛ والآخر خارجي يتعلق بالقوى الأجنبية. ومن الأخير، يحمي الأمير نفسه بقوات حاسمة

وحلفاء موثوق بهم، وسوف يكون لديه دائمًا حلفاء موثوق بهم إذا كانت لديه قوات حاسمة. وعلاوة على ذلك، سوف يتمتع بالهدوء داخل مملكته، ما لم تزعجه مؤامرة خفية. وحتى لو تحركت ضده قوى أجنبية من الخارج، فما دامت أموره منظمة ويعيش وفق توجيهاتي، ويحافظ على روحه، فإنه سيصد أي هجوم، تمامًا كما فعل نابيس الأسبرطي.

وبالنسبة للمؤامرات الخفية، يمكن للأمير أن يعزز إحساسه بالأمان منها –نسبيًا- إذا تجنب ما ذكرنا أنه يصمه بالاحتقار من تخنث وتفاهة وجبن. الأهم من كل ذلك أن أقوى علاج يمكن أن يكون لدى الأمير ضد المؤامرات يكمن في عدم كرهه من قبل شعبه، لأن المتآمرين يعتقدون دائمًا أن الخلاص من الأمير سيُرضي الناس، وعندما يشكُّون في أن تصرفهم سيغضب الناس، فلن يتهوروا إلى الحد الذي يجعلهم يقومون بذلك. إن الصعوبات التي يواجهها المتآمرون كثيرة للغاية؛ وتثبت التجربة أنه على الرغم من حدوث العديد من المؤامرات، إلا أن القليل منها نجح. لا يستطيع المتآمر أن يعمل بمفرده، وبمجرد أن يكشف عن نواياه لأحد السَّاخطين مثله، فسوف يظل مُثقلًا بالشك والخوف من الوشاية، فلا بد أن يكون موضع سره إما صديقًا نادرًا جدًا أو عدوًا عنيدًا جدًا للأمير.

وباختصار أقول إن المتآمر يظل ضحية الخوف والريبة، وهو ما يضعف من معنوياته؛ بينما يملك الأمير جلال الدولة والقانون

وحلفاءه وعسكره. وإذا أضفنا إلى هذه المزايا جبن الشعب، فمن النادر أن يتهور أحد فيتآمر ضده؛ ذلك أن شجاعة المتآمر لا تستمر عادة؛ وحتى في هذه الحالة، ومع حب الشعب للأمير، فإنه يخاف من العواقب، ولا يمكنه أن يأمل في العثور على ملجأ آمن في أي مكان.

ولإثبات ذلك، يمكننا أن نستشهد بأمثلة لا حصر لها لذود الناس عن الأمير المحبوب، ولكنني سأكتفي بمثال واحد رواه لنا آباؤنا. فعندما كان السيد أنيبالي بينتيفوجلي، جد أنيبالي الحالي، حاكمًا في بولونيا، وقد شكلت عشيرة كانيسكي مؤامرة بشعة أدت إلى قتله هو ومن معه؛ ورغم أنه لم ينجُ أي فرد من أفراد عائلته باستثناء الطفل جيوڤاني، فقد انتفض الناس وقتلوا كل أفراد عائلة كانيسكي.

كان هذا نتيجة المكانة التي حظيت بها عائلة بينتيفوجلي في بولونيا آنذاك. وكانت شعبيتهم عظيمة لدرجة أنه في ظل عدم بقاء أي فرد من العائلة ليحكم بولونيا، أرسل الناس إلى فلورانس حيث كان هناك، وفقًا للتقارير، ابن غير شرعي لعائلة بينتيفوجلي نشأ على يد حداد. واستدعوه إلى بولونيا وعهدوا إليه بالحكم حتى يبلغ الطفل جيوڤاني سن الرشد.

وبناء على ما سبق أقول إن الأمير لا يحتاج إلى أن يأخذ في الحسبان المؤامرات إذا كان الشعب يميل إلى مصلحته. أما إذا كان الشعب يعاني منه ويكرهه، فينبغي له أن يخشى كل حادث وكل فرد. لقد

بذلت الدول المنظمة وكل الأمراء الحكماء قصارى جهدهم في محاولة تجنب إثارة غضب النبلاء وفي الحفاظ على رضا عامة الناس. وهذا من أهم الواجبات التي تقع على عاتق الأمير.

ومن الممالك المحكومة جيدًا في عصرنا، فرنسا. فهي تتمتع بعدد كبير من القوانين والهيئات الحاكمة التي يمكن الاعتماد عليها في ضمان حرية الملك وأمنه. ومن هذه المؤسسات: البرلمان بالسُلطة المُخوَّلة له. إن الذي خطط حكم تلك المملكة أدرك أنانية النبلاء وغطرستهم، وخلص إلى ضرورة وضع لجام لكبح جماحهم. كما أدرك كراهية النبلاء التي أنشاها الخوف بين عامة الناس، وخلص إلى أن هؤلاء العامة في حاجة إلى الشعور بالطمأنينة. لكنه قرر ألا تقع أي من هذه الواجبات على عاتق الملك، لأنه إذا حدث ذلك، فسوف يفقد الملك تأييد أي من الجانبين. ورأى بدلًا من ذلك أنه يجب أن تكون هناك منظمة - تثقل كاهل التاج، من شأنها أن تردع النبلاء وتدعم عامة الناس. لا شك أنه لم يكن هناك ترتيب أفضل أو أكثر حكمة من هذا، ولا مصدر أعظم لأمن للملك منه. ومن هذا نتعلم درسًا جديرًا بالانتباه: ينبغي للأمراء أن يفوضوا آخرين بالمهام المثيرة للغضب، بينما يوزعون الامتيازات بأنفسهم بشكل مباشر. وأقول مرة أخرى إن الأمير لا بد أن يحترم النبلاء، ولكن عليه رغم ذلك أن يتجنب كراهية عامة الناس.

عند استعراض حياة بعض الأباطرة الرومان وموتهم سنجد بعض الغرائب، فقد يكون الحاكم رائع السيرة ويموت ميتة شنيعة، وقد يبقى المجد ظلًا لحاكم ظالم حتى بعد موته. إن مآسيهم لتجعل الرأي فيهم غير ذي يقين، بعضهم عاشوا حياة نزيهة تمامًا، وأظهروا شجاعة كبيرة، ومع ذلك فقدوا الإمبراطورية أو تم التآمر عليهم وقُتلوا من قبل رعاياهم. وفي الرد على مثل هذا الاعتراض، أود مناقشة شخصية بعض هؤلاء الأباطرة وإثبات أن أسباب سقوطهم لا تتعارض مع ما استشهدت به. وسأعرض فيما يلي بعض الاعتبارات التي ينبغي أن يلاحظها الذين يدرسون أحداث العصور. ولهذه الغاية، يكفي أن نأخذ مثلًا من حياة بعض الأباطرة بدءًا من ماركوس الفيلسوف إلى ماكسيمينوس. أي ماركوس أوريليوس، وابنه كومودوس، وبيرتيناكس، وديديوس جوليانوس، وسيبتيموس سيفيروس، وابنه أنطونيوس كاراكالا، وماكرينوس، وإيل جبل، وألكسندر سيفيروس، وماكسيمينوس[1].

هؤلاء الأباطرة العشرة حكموا على التوالي من عام ١٦١ إلى عام ٢٣٨ م

قد نضطر أحيانًا إلى التضحية بالصلاح من أجل السلطة.

٢٠

أيهما أحق بالعناية: الجند أم الرعية؟

نلاحظ أنه في حين كان على الأمراء عادة أن يتعاملوا مع طموحات الأقوياء ووقاحة العامة، كان على الأباطرة الرومان أن يتعاملوا مع مشكلة ثالثة: وهي جشع جنودهم. كانت هذه المهمة صعبة للغاية حتى إنها سبب سقوط العديد من إمارات الرومان. فقد كان من الصعب إرضاء الجنود والشعب في الوقت نفسه. كان الشعب يحب السلام وبالتالي أحب الحكام المعتدلين؛ وكان الجنود يحبون الحكام المتحلين بالصلافة العسكرية والوقاحة؛ القُسَاة الجشعين الذين يستخدمون هذه الصفات ضد الشعب لكسب أجور مضاعفة لهم أو منحهم سلطة أكبر عليهم. وكانت النتيجة المترتبة على ذلك أن أولئك الأباطرة الذين لم تكسبهم خبرتهم أو مواهبهم الطبيعية سمعة طيبة تمكنهم من كبح جماح الجنود والشعب على حد سواء، كانوا يتساقطون من السلطة تباعًا. وقد اختار أغلبهم، حين كان الاختيار بين الجند أو الشعب، إرضاء الجنود ولم يبالوا بإهانة الشعب. وعلى هذا فإن الأباطرة الذين وصلوا إلى السلطة للتو، والذين كانوا في احتياج إلى دعم خاص، لجأوا إلى الجنود بدلًا من الشعب. وكانت النتيجة أن نجاحهم أو فشلهم كان يعتمد على قدرتهم على الاحتفاظ بدعم الجنود.

ولهذه الأسباب، فمن بين الأباطرة الثلاثة، ماركوس أوريليوس، وبيرتيناكس، وألكسندر سيفيروس ـ الذين عاشوا جميعًا باعتدال، وأحبوا العدالة، وكرهوا القسوة، وتصرفوا بإنسانية ولباقة ـ كان ماركوس وحده الذي نجا من نهاية قاسية. لقد عاش ماركوس ومات بكرامة لأنه وصل إلى العرش بحكم حقه الوراثي ولم يكن مدينًا للجنود ولا للشعب بشيء. ولأنه، فضلًا عن ذلك، كان يتمتع بالعديد من الفضائل التي أكسبته الاحترام، فقد كان قادرًا على إبقاء الشعب والجنود كلٌّ في حدوده دون إثارة الكراهية أو الاحتقار. أما بيرتيناكس فقد انتهى نهاية سيئة، فقد عُيِّن إمبراطورا ضد رغبات الجنود الذين اعتادوا على الحياة الفاسدة تحت حكم كومودوس، ولم يستطيعوا أن يتحملوا السلوك اللائق الذي سعى إلى فرضه عليهم. ونتيجة لهذا تعرض بيرتيناكس لكراهيتهم ومؤامراتهم، التي أضيف إليها الوهن بسبب كبر سنه، فسقط سقوطًا ذريعًا في الحكم.

وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن الكراهية قد تتولد من الأعمال الصالحة كما تتولد من الأعمال السيئة. ولذلك، وكما قلت من قبل، فإن الأمير الذي يرغب في الحفاظ على السلطة كثيرًا ما يضطر إلى أن ينحي الصلاح جانبًا. وعندما تكون الجماعة التي يرى دعمها ضروريًا لبقائه فاسدة. سواء كانت عامة الناس، أو الجنود، أو النبلاء، فإنه لا بد من أن يتبع ميولهم وإرضاءهم. وفي هذه الحالة يصبح الصلاح ضد مصالحه.

ولنتأمل الآن ألكسندر سيفيروس، الذي كان رجلًا صالحًا إلى الحد الذي جعل كل أعماله تستحق الثناء: لم يعدم شخصًا واحدًا دون محاكمة طيلة السنوات الأربع عشرة التي حكم فيها. ومع ذلك، ولأنه كان معروفًا بأنه أنثوي طري خاضع لحكم والدته، فقد ازدراه الجميع وتآمر الجيش ضده وقتله.

وإذا نظرنا إلى شخصيات كومودوس، وسيبتيموس سيفيروس، وأنطونيوس كاراكالا، وماكسيمينوس، فسنجد أنهم جميعًا كانوا شديدي القسوة والغباء. فمن أجل إرضاء الجنود سمحوا لهم بارتكاب كل الفظائع الممكنة على الشعب؛ وباستثناء سيبتيموس سيفيروس، انتهى بهم الأمر جميعًا إلى نهاية سيئة.

وكان سيفيروس قائدًا بارعًا إلى الحد الذي جعله قادرًا على الحكم بنجاح مستمر من خلال الحفاظ على ولاء جنوده، على الرغم من ميله إلى اضطهاد الشعب. لقد أثارت قدراته العجب في الموازنة بين الجانبين، الجنود والشعب على حد سواء، بحيث ظل الجنود محترمين له راضين عنه ، وظل الشعب على ولائه واحترامه له. لقد طبق هذا الرجل نظرية الأسد والثعلب بكل براعة. وعندما عاد إلى روما، عاد متدثرًا بنفس عباءة الدهاء فأرهب أعضاء مجلس الشيوخ واكتسب تأييدهم في الوقت نفسه فنجحت مؤامرته على الإمبراطور جوليانو وأُعدم بعد ستة وستين يومًا فقط من توليه الحكم ثم انتخب مجلس الشيوخ سيفيروس إمبراطورا.

وبعد تلك البداية المُكلَّلة بالنجاح، جابه سيفيروس عثرتين هائلتين، قبل أن يستطيع الهيمنة الكلية على الإمبراطورية، أولاهما كانت في آسيا، حيث أعلن نيفرينوس، قائد الجيوش الآسيوية نفسه إمبراطورا. وأما ثانيتهما فكانت في الغرب حيث يطمع ألبينوس في عرش الإمبراطورية هو الآخر. ولما رأى مدى الخطورة البالغة في معاداة قائدين معًا، قرر مواجهة نيفرينوس عسكريًا وأخذ ألبينوس بالحيلة والخديعة، فراسله معبرًا عن رغبته في إشراكه بذلك الشرف الذي خلعه عليه مجلس الشيوخ باختياره إمبراطورا، ومنحه لقب قيصر. ثم أقنع مجلس الشيوخ بإعلانه شريكًا له، وهي منحة صدقها ألبينوس فتم خدعه واصطياده بها.

وبعد أن نجح سيفيروس في هزيمة نيفرينوس وقتله، هدأت الأوضاع في آسيا فرجع إلى روما، واتهم ألبينوس في مجلس الشيوخ بجحود نعمه وعطاياه، والتآمر عليه لقتله وخيانته، ولهذا يجد ذاته مجبرًا على نفيه إلى فرنسا جزاءً على جحوده ونكرانه لكل ما وهبه. وفي طريقه إلى فرنسا، انقض عليه وعشيرته في قتال، وهكذا سلبه مركزه وحياته.

ويتجلى لكل من يدرس تفصيلًا أعمال سيفيروس، كونه ليثًا غادرًا وثعلبًا ماكرًا، الكل كانوا يرهبونه ويجلونه، بينما لم يكن الجيش يشعر تجاهه ببغض، أي أنه فاز بالفصيلين من جيش ورعية في وقت قصير.

ليس غريبًا بعد كل ذلك أن يتحلى هذا الأمير بهذا البأس الهائل، بالنظر إلى صيته الجليل. وكان ابنه انطونيوس، صاحب كفاءة هائلة هو الآخر، متمتعًا بسمات جعلته محط إعجاب الشعب وحب الجند، فقد كان عسكريًا بكل معنى الكلمة، يحتقر الرفاهة والبذخ بجميع مناحي الحياة، مما دفع جنوده للتعلق به. ومع هذا فقد تميز بوحشية وقسوة، لم يُر لهما مثيلًا، فبعد قتله العديد من الأفراد العاديين، أمر بقتل عدد أكبر من سكان روما، وكل سكان الإسكندرية، حتى بدأ المقربون منه يرهبونه منتظرين أن يقتلهم أو يقتلونه، وانتهى به الأمر في الختام قتيلًا على يد أحد قواده وسط الجيش .

ومن الجدير بالملاحظة هنا، أن مثل تلك الميتة، التي تمت عن نية مبيتة، لا يمكن للأمراء تفاديها. وذلك لكون كل من لا يهاب الموت باستطاعته قتل الآخرين. ولكن يلزم على الأمير، بكل الأحوال، عدم خشية هذا الصنف من الاغتيال، فهذا النوع من الرجال، شديد الندرة، وكل ما يلزمه الحرص على عدم الإساءة الشديدة لأي فرد يعمل في خدمته، أو قريبًا منه، كما حدث لأنطونيوس، الذي أمر بقتل شقيق أحد الضباط، ميتة مذلة، وكان يهدده يوميًا، بالرغم من احتفاظه به بين رجال حرسه بالقتل مثل أخيه، وهو غباء وحمق، كما برهنت الأيام والأحداث.

***

ولننتقل الآن إلى كومودوس، الذي كان في استطاعته الاحتفاظ بمنصبه، لأنه بلغه بالوراثة. فقد كان ابن ماركوس، وكان بإمكانه أن يحذو حذو أبيه، في إرضاء الطرفين من جند وشعب. ولكن كومودوس هذا كان همجيًا ووحشيًا في طباعه، فعمد إلى ممارسة وحشيته وطمعه على شعبه إرضاءً لجنوده، الذين اصطحبوه وصحبهم إلى حياة المجون والانفلات. ولم يحتفظ من الجهة الثانية، بالهيبة التي يفرضها عليه مركزه، فكان ينزل دومًا لحلبات الصراع في المسارح، ويقترف أعمالًا مخزية لا تتلاءم مع إمبراطور، مما أدى بجنوده أنفسهم إلى ازدرائه بمرور الوقت. وهكذا توافر العاملان، الكراهية من جهة، والازدراء من الجهة الثانية، فتآمر البعض عليه وأردوه.

ولننظر الآن إلى شخصية مكسيمينوس، لقد كان رجلًا مقدامًا ذا قلب لا يتورع عن خوض الأخطار.. وضمير لا يتردد بالأعذار، جسورًا لا يعرف اللين ولا يقبل التخنث. ولما كان الجيش قد أرقته طبيعة الملك ألكسندر المائعة وليونة عريكته وطاعته الفجة لأمه غير المحبوبة، وهو ما ذكرناه سالفًا، فقد انتخب مكسيمينوس إمبراطورا بعد موته. ولكنه لم يتمتع بالعرش مدة طويلة رغم نجاعة أسلوبه.

لقد كان هناك عاملان يعرضاه للبغض وللاحتقار مهما حقق من انتصارات، أولهما وضاعة منشئه، إذ كان راعي غنم في صغره، وهي

حقيقة انتشر صداها وجعلته محط الاحتقار من كلا الطرفين، الجيش والرعية.

أما السبب الثاني فكان يتعلق بوحشيته الشديدة، والتي أصبحت معروفة على نطاق واسع من خلال القسوة التي ارتكبها حكامه في العاصمة وفي أماكن أخرى حتى إنه أرجأ رحلته إلى روما لمراسم تنصيبه على رأس الإمبراطورية ليرتكب المزيد من دمار وسفك الدماء بوحشية في ميادين القتال. وبالتالي، تحرك العالم كله لازدراء أصوله الدنيئة والتنديد بوحشيته، وكانت النتيجة أن تمردت عليه إفريقيا أولاً، ثم مجلس الشيوخ الروماني وشعبه ثانيًا، ثم إيطاليا بأكملها، وأخيراً جيشه. وعندما واجهت قواته صعوبات في حصار أكويليا، غضبت من قسوته، ولأنها لم تعد تخشى شيئًا الآن بعد أن أصبح لديه الكثير من الأعداء، فقد قتلته.

وسأبلغ ختام نقاشي هذا قائلًا إن الحكام كانوا مجبرين على إرضاء جنودهم أكثر من إرضاء الشعب قديمًا، ذلك لأن الجنود كانوا يتمتعون بسلطة أكبر من الشعب. أما اليوم، باستثناء سلاطين تركيا ومصر، فإن جميع الحكام يرون أن إرضاء الشعوب أهم من إرضاء الجنود، لأن الشعوب الآن تتمتع بسلطة أقوى.

وقد استثنيت سلطان الترك، لأنه يحيط نفسه بما يزيد عن اثنى عشر ألف جندي من المُشاة، وخمسة عشر ألفًا من الفرسان، وعليهم تقوم أعمدة دولته وأمانها، ويحرص دومًا على اتقاء

سخطهم. وينطبق هذا الوضع كاملًا على سلطان مصر، إذ إن مملكته كلها بين أكف الجنود، مما يرغمه دائمًا على ترضيتهم، مهما كلف ذلك الشعب من عناء[1]. ومن الجدير بالذكر أن السلطنة المصرية تختلف عن كل إمارة أخرى وتشبه البابوية المسيحية، التي لا يمكن وصفها بأنها وراثية أو جديدة لأن خليفة الحاكم ليس ابنه بل شخصًا منتخبًا لهذا المنصب من قبل أشخاص مُخولين بإجراء الاختيار. ولكون هذا النظام راسخًا وعتيدًا، فليس باستطاعتنا أن نصف تلك المملكة بالجديدة، إذ لا يوجد فيها العثرات التي تقع في الإمارة الحديثة، والحاكم الذي يلي السلطنة فيهم يُطاع طاعة مُطلَقة كأنه سيدها الوراثي.

ولنرجع فورًا لموضوعنا. إن كل من يطالع مناقشاتي السالفة يلاحظ أن الكراهية والاحتقار كانا دومًا العامل الأساسي في سقوط الأباطرة الذين ذكرتهم، وسيلاحظ أيضًا، كيف حدث هذا على الرغم من أن البعض اختاروا نمطًا سلوكيًا واختار آخرون عكسه. وقد انتهى بعضهم إلى نهاية طيبة، بينما انتهى البعض الآخر للنقيض بنهاية حزينة. ولما كان بيرتينكس وألكسندر حاكمين حديثين، فقد كان من غير النافع لهما، بل من الضار والمؤذي، محاولة تقليد ماركوس، الذي كان أميرًا وراثيًا. وينطبق ذلك بالمثل على كاراكلا وكومودوس

كانت مصر في تلك الحقبة تحت إمرة السلطان العثماني سليم الأول. لكن ميكيافيلي هنا يشير إلى العصر المملوكي.

ومكسيمينوس، فقد كان من الجحيم لهم تقليد سيفيروس، مع افتقارهم إلى الإمكانات اللازمة لحذوهم حذوه. وهكذا يتعسر على الأمير الحديث، تقليد أعمال ماركوس، كما لا يلزمه تقليد أعمال سيفيروس. وكل ما يلزم فعله، أن يأخذ عن سيفيروس الأمور الضرورية لتأسيس إمارته، وعن ماركوس السمات ذات النفع في صون إماراته مستقرة الأركان – أي أن يجمع صفتي الأسد والثعلب.

إذا ساعدوك على دخول إمارتهم فاشكرهم، لكن لا تترك السلاح في يدهم، ولا تجعل لهم مكانًا عندك.

٢١

نزع السلاح من الرَّعية

لكي يحافظ الأمراء على أمنهم، عمد بعضهم إلى نزع السلاح عن رعاياهم؛ وعمد آخرون إلى إثارة الانقسامات داخل المدن التي استولوا عليها، وجنح بعضهم إلى تغذية العداوات ضدهم؛ وسعى آخرون إلى كسب رضا الذين لم يثقوا بهم، وعمد بعضهم إلى إقامة الحصون وإعادة تشييد المهدوم منها؛ وتعمد آخرون إلى تدميرها. ورغم أنه من المستحيل إصدار أحكام قاطعة في صحة أو خطأ هذه التدابير دون النظر في الظروف الخاصة بكل إمارة، فإنني سأناقشها بقدر من الشمول الذي تقتضيه أهمية الموضوع.

بداية، لا يجب على أمير حديث العهد أبدًا أن ينزع السلاح عن رعيته، بل إن يسعى إلى تسليح من لم يحمل السلاح، وبذلك يصبح الجميع جندًا لنا، أسلحتهم أسلحتنا، وهكذا ينضم إلينا من لم يكن معنا، أما من كانوا معنا منذ البداية فيصبحوا أكثر قربًا، وهكذا يزداد عدد الموالين والأنصار، حيث يشعر الجميع بالالتزام تجاهك. أما حين تنزع عنهم سلاحهم فإنك تسيء إليهم بإظهار عدم ثقتك بهم مما قد يدفعهم إلى كراهيتك. فضلًا عن ذلك، بما أنه من المستحيل

أن تظل الرعية غير مسلحة، فسوف تضطر إلى اللجوء إلى المرتزقة، الذين سبق أن ناقشنا حدودهم. ولكن حتى لو كانت هذه القوات جيدة، فإنها لن تكون كافية للدفاع عنك ضد الأعداء الأقوياء والرعايا المشكوك فيهم. لذلك، وكما قلت، فإن الأمير الجديد في الإمارة المكتسبة حديثًا يتخذ دائمًا تدابير لتسليح رعيته، والتاريخ مملوء بالأمثلة التي تثبت ذلك.

ما سبق ذكره يتعلق بإمارتك الأصلية. ولكن عندما يغزو أمير إمارة جديدة ويضيفها إلى مملكته الأصلية، فإنه يتعين عليه نزع سلاح جميع رعايا تلك الإمارة الجديدة باستثناء أولئك الذين ساعدوه في الحصول عليها؛ ثم عليه أن يسعى إلى إضعاف هؤلاء، حسبما تسمح به الظروف ويسمح الوقت. ويجب عليه أن يرتب الأمور على نحو يجعل أسلحة الإمارة بأكملها في أيدي جنود مملكته الأصلية.

كان أجدادنا الحكماء يقولون إنه من الضروري استغلال الصراعات الطائفية الداخلية للاحتفاظ ببيستويا، واستخدام الحصون للاحتفاظ ببيزا. ولهذا السبب عملوا على إثارة الصراعات الحزبية في بعض المدن الخاضعة لهم فلم يسمحوا لهم بالاتحاد أبدًا حتى يتمكنوا من السيطرة عليها بسهولة أكبر. وربما كانت هذه السياسة مقبولة في تلك الأوقات، عندما كانت إيطاليا تتمتع بحالة من التوازن بين ولاياتها المختلفة. ولكنني لا أعتقد أنه ينبغي أن نجعل من هذا مبدأً ثابتًا في الوقت الحاضر، لأنني لا أعتقد أن الفصائل

المتشاحنة تفيد أحدًا على الإطلاق. والواقع أنه من المحتم أن تسقط المدينة المنقسمة على أساس الفصائل بسرعة في يد أي عدو يقترب منها. وسوف يتحالف الجانب الأضعف في الداخل دائمًا مع الغازي، ولن يتمكن الجانب الأقوى من الصمود بمفرده .

وكما نرى، فإن البندقية، باتباعها السياسة الموصوفة للتو، شجعت على ما يبدو الفصائل الغويلفية والغيبلينية في المدن الخاضعة لها، ورغم أنها لم تسمح لهم قط بالوصول إلى سفك الدماء، إلا أنها شجعت مع ذلك الخلافات الكافية لإبقاء المواطنين متخاصمين فيما بينهم، وبالتالي غير قادرين على الاتحاد. ولكن هذا لم يكن في صالحها، فحين هُزمت في فايلا، ثارت على الفور إحدى هذه الفصائل ضدها وحرمتها من كل أراضيها. فضلًا عن ذلك، فإن هذه السياسة تدل على ضعف الأمير، لأن مثل هذه الانقسامات لا يمكن التسامح معها أبدًا في إمارة قوية. وهي مفيدة فقط في أوقات السلم لأنها تسهل السيطرة على رعايا المرء. ولكن عندما تكون هناك حرب، يصبح الضعف الكامن في هذه السياسة واضحًا.

لا شك أن الأمراء يصبحون عظماء بالتغلب على المعارضة وإزالة العقبات التي تعترض طريقهم. لذلك، عندما تريد الأقدار أن تمنح العظمة لأمير جديد، يحتاج إلى الشهرة أكثر من الأمراء الوراثيين، فإنها تخلق أعداءً وتحثهم على مهاجمته حتى يكون لديه سبب لهزيمتهم؛ وهكذا يتسلق المرتفعات باستخدام سلالم يوفرونها له

بأنفسهم. لهذا السبب يعتقد الكثيرون أنه عندما تكون الظروف مناسبة، فإن الأمير الحكيم يخلق المعارضة بذكاء ثم يزيد من مكانته عن طريق هزيمتها.

لقد وجد الأمراء، وخاصة الجدد منهم، قدرًا أعظم من الولاء والفائدة في الرجال الذين كانوا يشعرون بالريبة تجاههم في بداية حكمهم مقارنة بالرجال الذين كانوا يثقون بهم في البداية. فقد حكم باندولفو بيتروتشي[1]، إمارة سيينا، دولته في أغلب الأحيان بالاستعانة برجال كان يشك فيهم أكثر من استعانته بآخرين من أهل الثقة. ولكن لا يمكننا أن نتحدث بشكل عام عن هذه المسألة، لأنها تختلف وفقًا للموقف. سأكتفي بالقول إن من يتمتعون دائمًا بالثقة غالبًا ما يهملون في واجباتهم، أما أولئك الذين يكونون موضع ريبة في بداية نظام جديد، والذين هم بحاجة لوالٍ يستطيعون الاعتماد عليه يتحولون إلى موالين مخلصين ويخدمون بإخلاص يتناسب مع حاجتهم إلى إلغاء الرأي السلبي الذي كان يحمله عنهم بالأفعال. ومن ثم فإن الأمير سوف يجدهم أكثر فائدة من أولئك الذين يحظون بثقته ابتداءً.

ولما كان الموضوع يتطلب ذلك، فلن أتردد في تذكير أي أمير اكتسب إمارة جديدة بمساعدة سكانها بأن يفكر مليًا في الأسباب التي دفعت

---

[1] باندولفو بيتروتشي، أحد أكثر الطغاة مكرًا في عصره، أدار شؤون سيينا من عام ١٥٠٠ إلى عام ١٥١٢.

هؤلاء السكان إلى مساعدته؛ فإذا لم يكن السبب هو المودة الطبيعية له، بل عدم الرضا عن الحكومة السابقة، فسوف يجد صعوبة بالغة في الحفاظ على صداقتهم، لأنه سيكون من المستحيل إرضاؤهم. إذا فكر في الأمر بعناية في ضوء الأمثلة المأخوذة من الشؤون القديمة والحديثة، فسوف يفهم لماذا سيكون من الأسهل بكثير كسب ود أولئك الذين كانوا سعداء بحكومتهم السابقة، وبالتالي كانوا أعداءه، من الحفاظ على ود أولئك الذين ساعدوه في استبدال الحكم السابق بسبب عدم رضاهم عنه.

الحب هو الأمان، أما الحصون فإنها واهية.

٢٢

القلاع والحصون

من أجل الحفاظ على ممتلكاتهم بأمان أكبر، اعتاد الأمراء على بناء القلاع لرد أعدائهم وتوفير ملجأ لأنفسهم في حالة وقوع هجوم مفاجئ. ولأن هذا الإجراء كان متبعًا منذ القدم، فأنا أشيد به. ومع ذلك، فالقلاع والحصون سلاح ذو حدين؛ توفر الحصون ملجأ آمنًا وقاعدة للعمليات العسكرية. ومن جهة أخرى، يمكن أن يُؤتى الخطر منها على الإمارة، والحد من قدرة الحاكم على المناورة.

والمثل الأقرب في عصرنا هو نيكولو فيتيلي الذي قام بتفكيك اثنتين من القلاع في مدينة سيتا دي كاستيلو حين أستعاد احتلالها، وذلك لإحكام السيطرة عليها.

وعندما استعاد غيدوبالدو دوق أوربينو مملكته التي طرده منها بورجيا العظيم سابقًا، هدم كل قلاعها حتى سوَّاها بالأرض، معتقدًا أنه دونها ستكون احتمالات خسارته لها للمرة الثانية أقل. واتخذ آل بينتيفوجلي تدابير مماثلة عندما عادوا إلى بولونيا.

نستنتج من ذلك أن الحاكم الحكيم ينبغي أن يدرس بعناية السياق العسكري قبل أن يقرر بناء أو تدمير الحصون. لأن قدرته على

الحفاظ على السيطرة على السكان والأراضي أكثر أهمية من أي تحصينات مادية.

فالحصون قد تكون مفيدة أو ضارة بحسب الظروف، فإذا كانت مفيدة من جهة فإنها تكون ضارة من جهة أخرى. ويمكن النظر إلى الأمر على النحو التالي:

الأمير الذي يخاف الأعداء الخارجيين أكثر من الرعية لابد وأن يبني القلاع؛ أما الأمير الذي يخاف رعيته أكثر من خوفه من الأعداء فعليه ألا يفكر فيها؛ فبناء القلاع للاختباء من الرعية إذا انقلبوا على الحاكم ليس مُجدِيًا على الإطلاق. إن قلعة ميلانو التي بناها فرانشيسكو سفورزا كانت وما تزال سببًا في إحداث المزيد من المتاعب لبيت سفورزا أكثر من أي اضطرابات في تلك الإمارة .

إن أفضل حصن يمكن أن يمتلكه الأمير هو ألا تكرهه رعيته. فإذا كرهته الرعية، لن ينقذه حصن ولا قلعة، وسيجمع الخطرين في آن واحد، لأن الناس عندما يحملون السلاح ضد حاكمهم، لن يفتقروا أبدًا إلى الدخلاء الأغراب لنجدتهم، (أو إدعاء نجدتهم).

في أيامنا هذه، لم تفد القلاع أي حاكم باستثناء كونتيسة فورلي عندما قُتل زوجها الكونت جيرولامو. وبفضل حصنها، تمكنت من الفرار من هجمات العامة والانتظار حتى وصول المساعدة من ميلانو لاستعادة ممتلكاتها.

ولكن عندما هاجمها البطل بورجيا في وقت لاحق، وانضم رعاياها إليه، لم تكن القلعة ذات فائدة لها. لقد كان من الأفضل لها ألا تكون مكروهة من الناس بدلًا من امتلاك القلعة.

لذلك، بعد النظر في كل شيء، أوافق على أولئك الذين يبنون القلاع وأولئك الذين لا يفعلون ذلك. لكنني أدين أي شخص يضع ثقته في القلاع ويرى أنه لا يهم كثيرًا أن يبغضه الناس.

الدعاية الجيدة ستار متين يحجب عنك سخطهم،

ويحجب عنهم الحقيقة.

٢٣

كيف يحظى الأمير بالوجاهة والتقدير؟

لا شيء يمكنه أن يكسوك بالتبجيل والتقدير مثل المعارك الكبرى والانتصارات المجيدة، ألا تغرق في ملذات الحكم بل تجعله نقلة فارقة في توسعة الإمارة، تلك هي الأدلة النادرة على الجدارة.

في عصرنا هذا، على سبيل المثال، هناك فرديناند الأراغوني (الثاني)، ملك أسبانيا الحالي، والذي كان حديث عهد بالإمارة لكنه انطلق في اكتساب قدر كبير من الشهرة والمجد حتى أصبح الآن أعظم ملك في العالم المسيحي. وأي شخص يراجع مشاريعه العسكرية سيجدها كلها عظيمة، وبعضها بلا قيمة. كانت الخطوتان الرئيسيتان اللتان حقق بهما فرديناند توحيد أسبانيا:

الأولى، زواجه من إيزابيلا ملكة قشتالة، وكان هذه الزيجة خطوة عبقرية جعلت قشتالة وأراغون مملكة واحدة، إذ أرسى هذا الاتحاد الأسري حجر الزاوية لتوحيد النظام الملكي الأسباني؛ على الرغم من أن المملكتين احتفظتا بنظامين قانونيين ومؤسسات منفصلة.

والثانية، غزو غرناطة، الذي أدى في النهاية إلى طرد المسلمين نهائيًا من أسبانيا بعد قرون من الحكم الإسلامي في أسبانيا.. وكان هذا العمل بمثابة حجر الأساس لأمجاده. لم يتردد ولم يخش التوابع رغم حداثة سنه. وهكذا أبقى بارونات قشتالة مشغولين بالحروب

إلى الحد الذي جعلهم لا يفكرون في التمرد عليه، وفي الوقت نفسه اكتسب مكانة وسلطة عليهم دون أن يدركوا ذلك. وبفضل الأموال التي وفرتها له الكنيسة والشعب، تمكن من إبقاء الجيوش في الميدان واستخدام تلك الحرب الطويلة كأساس لقوته العسكرية التي جلبت له الشرف منذ ذلك الحين.

وبدهاء يفوق خبراته وعمره الصغير، دثر فرديناند هجماته بصبغة لاهوتية، فنهب المارانو[1] وطردهم من مملكته بعد أن ألزمهم كلمة المسيح، ولم يكن هناك شيء أكثر إثارة للشفقة أو الغرابة من هذه القسوة باسم الدين. وبعباءة التقوى نفسها هاجم إفريقيا فاحتل الساحل الأفريقي من وهران إلى طرابلس؛ وقام بحملته على إيطاليا فغزا مملكتي نابولي ونافارا وحكم جميع الأراضي التي تضم أسبانيا؛ وأخيرًا شن الحرب على فرنسا بعد انضمامه للرابطة المقدسة. وهكذا كان يخطط وينفذ دائمًا أشياء عظيمة ملأت رعيته بالدهشة والإعجاب وأبقتهم مشغولين بعظمة انتصاراته لا بالرغبة في الخروج عليه. لقد تطور من عمل إلى عمل آخر بسرعة كبيرة لدرجة أنه لم يكن هناك وقت يمكن فيه للرجال أن يتآمروا بهدوء ضده.

كما يمكن أن يجد الأمير ضالته في التوسع في الأعمال المدنية المميزة، كتلك التي قام بها السيد برنابو في ميلان، وكذلك في مكافأة كل من قدَّم للرعية خدمة أو قام بعمل غير عادي، أو معاقبة من

المارانو : هم المسلمون واليهود الذين أجبروا على التحول إلى الكاثوليكية بالإكراه.

آذاهم، المهم أن تتوسع الدعاية لذلك بحيث تثير قدرًا كبيرًا من التعليقات والاهتمام. وفوق كل شيء، يجب على الأمير أن يسعى بكل تصرفاته إلى كسب الشهرة كرجل عظيم يتمتع بقدرات ممتازة.

كما ينبغي للأمير أن يبرهن على دعمه للمواهب من خلال مباركة الرجال ذوي القدرة، وتكريم أولئك الذين يتفوقون في كل حرفة. إضافة إلى ذلك، ينبغي له أن يشجع مواطنيه على تطوير أعمالهم بأمان، سواء في التجارة أو الزراعة أو أي نشاط بشري آخر، حتى لا يتردد أحد في تحسين ممتلكاته خوفًا من أن تؤخذ منه، ولا يتردد أحد في فتح طريق جديد للتجارة خوفًا من الضرائب .

وبدلًا من ذلك، ينبغي للأمير أن يكون مستعدًا لمكافأة أولئك الذين يقومون بهذه الأشياء وأولئك الذين يسعون إلى إيجاد طرق لإثراء مدينتهم أو دولتهم. بالإضافة إلى كل هذا، يجب عليه في الوقت المناسب من العام أن يشغل الناس بالمهرجانات والعروض؛ وبما أن كل مدينة مقسمة إلى نقابات أو هيئات مؤسسية أخرى، فيجب عليه أن يجعلها في الاعتبار ويجتمع بهم في المناسبات، مما يدل على لطفه وكرمه، مع عدم إغفال وقار منصبه، لأن هذا لا ينبغي أن ينقص أبدًا.

إن الأمير ليكتسب الاحترام أيضًا عندما يتصرف كحليف حقيقي أو عدو حقيقي، أي عندما يعلن صراحة تأييده أو معارضته لأحد الطرفين المتنازعين . وهي سياسة أفضل دومًا من الحياد. فالحياد ذريعة المتخاذلين، ولا يليق بأمير عظيم أن يكون بلا موقف في

الأمور الكبرى. فإذا وقع شجار بين اثنين من جيرانك، فقد يكون لديك سبب للخوف من المنتصر، وقد لا يكون لديك سبب. وفي كل الأحوال، فإنك ستفعل الصواب إذا أعلنت رأيك بكل عزم. فإذا كان لديك سبب للخوف من المتجبر ولم تعلن موقفك، فإنك ستصبح فريسته التالية بكل تأكيد، مما يرضي الطرف الخاسر ويسعده. وعندئذ لن تجد من يدافع عنك أو يقدم لك ملجأ. ولن يرغب المنتصر في حليف غير مؤكد لم يكن مفيدًا وقت الشدة، ولن يحتضنك الخاسر لأنك لم تكن على استعداد للمخاطرة بأسلحتك من أجله.

وعندما غزا أنطيوخس اليونان لطرد الرومان بناء على أمر الأيتوليين، أرسل مبعوثين إلى الآخيين، حلفاء الرومان، وحثهم على البقاء على الحياد. وفي الوقت نفسه حثهم الرومان على حمل السلاح نيابة عنهم. وعندما طُرح الأمر للمناقشة في مجلس الآخيين ودافع مبعوثو أنطيوخس عن حيادهم، أجاب المبعوث الروماني: "إن ما ينصحونكم به باعتباره أفضل سياسة، ألا وهو تجنب المشاركة في الحرب، يتعارض في الواقع مع مصالحكم؛ فدون الصداقة، ودون الشرف، ستصبحون جائزة المنتصر التالية."

إن ما يحدث دائمًا هو أن الطرف الذي لا يكون صديقك يدعوك إلى الحياد، في حين يطلب منك صديقك أن تعلن عن موقفك بدعمه. ومن أجل تجنب اتخاذ قرار، فإن الأمير المتردد غالبًا ما يلتزم الحياد وغالبًا ما يقع في ورطة. أما إذا تحليت بالجرأة وأعلنت

موقفك، فستتوطد رابطتك بصديقك لو انتصر، أو تنشأ بينك وبين الطرف الآخر رابطة تمنعه أن يقمعك في المرحلة التالية .

وهنا ينبغي على الأمير أن يتجنب الانضمام إلى حليف أقوى منه بهدف مهاجمة إمارة أخرى ما لم ترغمه الضرورة على ذلك، كما شرحت آنفًا؛ لأنه بالفوز يصبح حينئذٍ أسيرًا لحليفه. وينبغي للأمير، قدر الإمكان، أن يتجنب أن يُترَك تحت رحمة طاغية. فقد انضم البنادقة إلى فرنسا في مهاجمة دوق ميلانو دون أن تحكم الضرورة بذلك، وكان ذلك سبب سقوطهم.

ولكن عندما لا يمكن تجنب مثل هذا التحالف (كما كانت الحال مع الفلورنسيين عندما أرسل البابا وأسبانيا جيشًا لمهاجمة لومبارديا)، فإن الأمير يجب أن يشارك للأسباب التي ناقشناها بالفعل. وأعظك أن تظن أن اختيار أحد الجانبين سيجعلك في أمان تام، فالواقع أن من الأفضل أن تدرك أنك تتنقل بين المخاطر، لأن هذا هو ترتيب الأشياء. فنحن لا نهرب أبدًا من خطر ما دون الوقوع في خطر آخر. وتكمن الحكمة في معرفة كيفية التمييز بين درجات الخطر واختيار أقلها خطرًا باعتباره الأفضل. وهنا يكون اختيارنا للأقل خطرًا، وليس للأقرب رابطة.

الناس بشكل عام يميلون إلى خدمة مصالحهم الشخصية قبل الإمارة.

٢٤

اختيار الوزراء

إن اختيار الوزراء لا يقل أهمية عن اختيار الأمير، ذلك أن كفاءتهم أو عدم كفاءتهم هي أول معايير قدرته على الحكم؛ كما أنها أول تقدير لذكائه سوف يعتمد على شخصية الرجال الذين يعينهم. فإذا كانوا ناجحين ومخلصين، فسوف يُضاف ذلك إلى حكمته، إذ يثبت حسن اختياره ورجاحة عقله. وإذا كانوا غير ذلك، فسوف يُحكم عليه بالسلب، لأن أول خطأ يمكن أن يرتكبه الحاكم يكمن في اختيار وزرائه. ولا أحد ممن عرف أنطونيو دا فينافرو، وزير باندولفو بيتروتشي، حاكم سيينا، كان ليتصور أن هذا الأخير ليس رجلًا حكيمًا للغاية، لأنه اختار مثل هذا الوزير[١].

والعقول يا سيدي ثلاثة: عقل قادر على التفكير بنفسه، وعقل قادر على التفكير ضمن آخرين، وثالث لا يستطيع التفكير بنفسه ولا التفكير مع الآخرين. النوع الأول هو الأفضل، والثاني ممتاز، والثالث لا قيمة له. ومن ثم فإن عقل باندولفو إذا لم يكن من النوع الأول، فإنه بالتأكيد كان من النوع الثاني. ومعنى اختياره أن الأمير قادر على

أنطونيو دا فينافرو: أستاذ القانون في سيينا، والذي أصبح فيما بعد الوزير الرائع لباندولفو بيتروتشي .

التمييز بين العقول. عندئذٍ لا يمكن للوزير أن يأمل في خدعه وسوف يعمل بشكل موثوق.

وهناك طريقة لا تخيب أبدًا في اختيار الوزراء، فإذا رأيت الرجل يسعى في مصالحه أكثر من مصالح مركزه، ويسعى إلى الانتفاع بسلطته أكثر مما يريد بها أن ينفع الإمارة، ويقدم الأصدقاء على الأكْفَاء، ويعتني بشكله أكثر مما يعتني بحقيقة مهنته، ويكثر الكلام عن قدراته دون أن يبرهنها بفعاله، فعندئذ توقن أنه ليس وزيرًا ناجحًا أبدًا .

إن الرجل الذي تقع على عاتقه مسئولية الوزارة لا ينبغي له أن يفكر في نفسه، بل الأمير، ولا ينبغي له أن يفكر في أي شيء سوى ما يتعلق بالأمير. ولكي يحافظ الأمير على ولائه، يجب عليه أن يظهر الاهتمام بوزيره فيكرمه ويثريه ويضعه تحت عينيه دائمًا، ويشاركه الامتيازات والواجبات، حتى يدرك الوزير أنه لا يستطيع الاستغناء عن الأمير. عندما تكون العلاقة بين الوزراء والأمراء على هذا النحو، فإنهما ينعمان بالوفاق والثقة، وعندما تكون العلاقة على نحو مختلف، فإن النتيجة ستكون كارثية لكليهما.

هم درن السلطة والسلطان.. مثل حفنة رمل في عين الأمير.

٢٥

كيف تتجنب الم--تملقين؟

هذه نقطة مهمة لا يمكنني إغفالها، إنهم درن خفي يصيب أجساد الأمراء، ودنس يوسخ أثوابهم، وهم دود الأرض في عين الأمير. تكتظ بهم البلاطات والقصور والمنصات، ولا ينفكون عن الوسوسة والتملق في آذان الأمراء. ولأن الرجال يسرون بالحديث عن صفاتهم الجميلة ويسهل خدعهم بها، فإنهم يجدون صعوبة في الحماية من هذه الآفات. وفي محاولتهم الحماية منها، فإنهم يخاطرون بالتعرض للازدراء. لأنه لا توجد وسيلة لتجنب التملق إلا بإعلام الرجال بأنهم لن يساء إليهم إذا قالوا رأيهم بصراحة.. ومع ذلك إذا أذنت لكل شخص في إخبارك بالحقيقة، فلن تحظى بالاحترام اللائق.

ولذلك فإن الأمير الحكيم سوف يتبع مسارًا ثالثًا، فيختار حكماء دولته ويمنحهم الحرية في إخباره بالحقيقة فقط، ولكن فيما يتعلق بالأمور التي يسأل عنها فقط، وليس غيرها. رغم أنه يجب عليه أن يسألهم عن جميع الأمور، ويستمع إلى آرائهم، ثم يقرر بنفسه ما يشاء. ويجب أن يعامل هذه المجالس والمستشارين الأفراد بطريقة توضح أن كلماتهم ستكون أكثر ترحيبًا كلما تم التحدث بها بحرية

أكبر. باستثناء هؤلاء الرجال، يجب ألا يستمع إلى أحد، بل يتبع المسار المتفق عليه ويفعل ذلك بحزم ويحتفظ بوقار شخصه ومنصبه. ومن يفعل خلاف ذلك سوف يقع ضحية للمتملقين أو المتبجحين.

وفي هذا الصدد، أود أن أستشهد بمثال حديث: اعتاد بري لوكا[1]، وزير ماكسيميليان، الإمبراطور الحالي، أن يقول إن جلالته لم يطلب المشورة من أحد قط. وكثيرًا ما كانت أفعاله تتناقض مع هذا الادعاء. وهذا يعني أن ماكسيميليان، على الرغم من حكمته الظاهرة، كان غالبًا ما يتأثر بالعواطف أو الدوافع أو نصيحة الآخرين، بدلًا من اتباع خطة مُتسقة ومدروسة جيدًا. ولعل الإمبراطور بالفعل رجل كتوم للغاية، لا يستشير أحدًا ولا يكشف عن نواياه، ولكن بمجرد أن يبدأ في تنفيذها، يتم اكتشافها، ثم يعارضها الرجال الذين حوله، وبسبب افتقاره إلى العزم، يسهل ثنيه عن هذه النوايا. والنتيجة هي أن ما يفعله في يوم ما يدمره في اليوم التالي، ومن غير الممكن أبدًا معرفة ما يسعى إليه أو يخطط له، أو أن يكون لديه أي ثقة في قراراته.

نعم، ينبغي للأمير أن يطلب النصيحة، لكنه يجب أن يكون ماضي العزم عند التصرف، أما اختيار الشخص والتوقيت فشأن يخصه وحده .

بري لوكا (أي لوكا الكاهن) رينالدي: سفير الإمبراطور ماكسيميليان (١٤٩٣-١٥١٩.

في الواقع، يجب عليه أن يثني الجميع عن تقديم النصيحة ما لم يطلبها. رغم ذلك، فإذا لاحظ أن شخصًا ما يحجب رأيه لسبب ما، فيجب أن يُظهر انزعاجه. نظرًا لأن العديد من الناس يعتقدون أن بعض الأمراء معروفون بالحكمة، وذلك بفضل مستشاريهم الحكماء وليس بفضل مواهبهم الطبيعية، فيجب إخبارهم بأنهم يخدعون أنفسهم. لأن هذه قاعدة عامة لا تفشل أبدًا: المشورة الحكيمة لن تجعل الأمير غير الحكيم حكيمًا، ولن ينصلح حاله إذا كان لديه بالصدفة مستشار واحد يثق به ويحكمه في جميع الأمور. قد يكون هناك مثل هذه الحالة، لكنها لن تدوم طويلًا، لأن المستشار سيحرم الأمير قريبًا من ولايته. إن الأمير غير الحكيم، الذي يتعين عليه أن يأخذ بعين الاعتبار نصائح العديد من المستشارين، لن يحصل على آراء متفقة، ولن يكون قادرًا على التوفيق بينها بمفرده. سوف يسعى مستشاروه إلى تحقيق مصالحهم الخاصة، ولن يعرف كيف يحكمهم ولا كيف يفهمهم. ولا يمكنهم فعل غير ذلك، لأن البشر يثبتون دائمًا أنهم أشرار ما لم تجبرهم الضرورة على أن يكونوا صالحين. لذلك أستنتج أن النصيحة الجيدة، بغض النظر عن مصدرها، تنبع في النهاية من حكمة الأمير، ولكن حكمة الأمير لا تنبع من النصيحة الجيدة.

الأمير الناجح هو الذي يستطيع الحفاظ على سلطته
وتوسيع نفوذه. بأي وسيلة كانت!

٢٦

لماذا أضاع أمراء إيطاليا إماراتهم؟

لو التزم الأمير حديث العهد بالحكم، بالتوجيهات التي ذكرتها، بحكمة وبصيرة، سوف يظهر مهيبًا بين رعيته، ويغدو آمنًا مستريحًا في إمارته بصورة تفوق الأمير صاحب الدماء الملكية. فالمعتاد هو ملاحظة الأمراء الجدد أو المحدثين بنظرة أشد تمحيصًا من الأمراء الوارثين .

وعند اعتراف الشعب بمآثر هؤلاء الأمراء فإنهم سيربحون ثقة مواطنيهم أكثر بكثير مما لو كانوا من أصحاب الدماء الملكية العريقة. فالشعوب تسحرها أحوال الحاضر أكثر من أحوال الماضي، وعند إحساسهم بالرفاهة والترف في حاضرهم تهنأ نفوسهم فلا يعودون للبحث عن أي شيء آخر، بل على العكس، سيبذلون أقصى ما في مقدرتهم للذود عن أميرهم، طالما ذلك الأمير لا يظهر العجز في أي من شؤونه.

وهكذا سيفوز بمجد مزدوج لأنه بدأ حكمًا جديدًا وزوَّده وعززه بقوانين سليمة وأسلحة متينة وبادرة أعمال مبشرة -تمامًا يكون خزي الأمير الوارث ثنائيًا في حالة الفشل، لأنه ولد أميرًا، وفقد عرشه نتيجة افتقاده إلى البصيرة والعزم والحكمة.

ولو طالع المرء أحوال الأمراء الذين أضاعوا ممالكهم في إيطاليا، في أيامنا هذه، كملك نابولي، ودوق ميلان[1] وغيرهما، لتجلت له فيهم كلهم مثلبة مشتركة، تتعلق بشدتهم العسكرية، على ضوء العوامل التي أسهبت في تفصيلها، ثم لشاهد بعد هذا أن القليل منهم، اكتسب عداوة شعبه وأن البعض الآخر، رغم محبة الشعب له، لم يحظ بمحبة النبلاء وولائهم. وبتفادي تلك النقائص لا تُفقد الإمارات، بالأخص لو توافرت لديه القوة العسكرية اللازمة ليتمكن من الاحتفاظ بها في ساحة القتال .

ففيليب المقدوني، ولست أقصد به والد الإسكندر الأكبر، بل الأمير الذي انهزم أمام تيتس كونيتيوس، لم يكن في حوزته دولة كبرى تقارن بجلال روما واليونان اللتين هاجمتاه، ولكنه كان رجلًا محاربًا مقدامًا، وكان لديه الوعي الكافي بالأسلوب الأمثل في تقريب ذاته إلى الشعب وطمأنينة النبلاء، فاستطاع تحمل أعباء الحرب والصمود ضد الدولتين العظيمتين لسنوات ممتدة. وبالرغم من فقده لهيمنته على بعض المدن بالختام، فإنه ظل قادرًا على صون ملكه ومملكته من الضياع من بين يديه[2].

١ فريدريك الأراغوني، طُرد من نابولي في عام ١٥٠١ نتيجة العمليات المشتركة بين الفرنسيين والإسبان .

٢ المقصود هو فيليب الخامس المقدوني.

ولذلك، على هؤلاء الفشلة، الذين حكموا الإمارة لسنوات ممتدة، عدم لوم القدر لكونهم فقدوها، بل عليهم لوم تواكلهم إذ لم يتفكروا في أيام الدَّعة والسِّلم بأن الأوضاع قد تتحول (وتلك خطيئة البشر المتداولة عدم الانتباه لاحتمالية ثورة العواصف عندما تكون الريح هادئة). وعند حلول أوقات المحنة لم يفكروا إلا بالهرب بدلًا من الذود عن إماراتهم، واضعين أملهم في أن الشعب الذي تحركه الأهواء وتقلبه حماقات الأعداء سوف يستدعيهم بعد أن يقاوم العاصفة ويستعيد الأمان. الشعب حصن رائع بعد تأمين الحصون الأخرى كلها، أما أن تعتمد عليه وحده –دون تأمين كل الوسائل، فتلك حماقة كبرى. لا ينبغي أن يظن امرؤ يترك نفسه للسقوط، أن هناك شخصًا سينقذه. ذلك لا يحدث عادة، ولو حدث فلن يكون في صالحه.. لأنه ساقط من الداخل، مخفق في إنقاذ ذاته. مثل هذه الوسيلة للدفاع جبانة، لأنها لا تنبع من مبادرة المرء الخاصة، الأساليب الدفاعية التي تعتمد على قوة المرء الخاصة هي الجيدة والمؤكدة والدائمة.

الإرادة الحرة في مواجهة القدر...

٢٧

مقاومة القدر

لست غافلًا عن أن كثيرًا من الناس يعتقدون أن شؤون العالم تتحكم فيها الأقدار والإله على نحو لا يمكن معه لحكمة البشر أن تتدخل، بل ولا يمكنها أن تحصنها وتحسنها على الإطلاق. ولهذا السبب فإنهم يميلون إلى الاعتقاد بأنه لا جدوى من بذل الجهد في هذه الأمور، وأن عليهم أن يخضعوا للصدفة وانتظار المصير. ونتيجة للتقلبات العظيمة التي تجاوزت كل توقعات البشر، والتي حدثت وما تزال تحدث يوميًا، فقد حظي هذا الرأي بقبول أوسع في أيامنا هذه مقارنة بما كان عليه الحال في الماضي. وعند التفكير في الأمر، كنت أميل أحيانًا إلى الموافقة على هذا الحكم إلى حد ما.

ومع ذلك، بما أنه لا يجوز إنكار إرادتنا الحرة، فإنني لست مُنكِرًا أن القدر لو كان هو المسيطر على نصف أفعالنا، فإنه لا يزال يسمح لنا بالسيطرة على النصف الآخر، أو نحو ذلك. القدر يشبه تلك الأنهار الغزيرة التي، عندما تثور، يغمر فيضانها الأراضي المنخفضة، ويدمر الأشجار والمباني، ويجرف الأرض على أحد ضفتيها فيلقيها على الجانب الآخر. الجميع يفر أمامه ويرضخون لتصاريفه دون أن يكون

بوسعهم أن يقاوموه. لكن ذلك لا يعني أن البشر لا يستطيعون أن يتخذوا التدابير اللازمة خلال فترات الهدوء بإقامة السدود والحواجز لتوجيه المياه المتصاعِدة عندما تأتي، أو على الأقل كبح جماح غضبها وتقليل الخطر.

ويمكننا أن نقول نفس الشيء عن القدر، فهو يميل إلى إظهار قوته حيث لا توجد موارد تُستخدَم لكبح جماحه. وهو يوجه مساره نحو النقاط التي يعرف أنه لا توجد فيها سدود أو حواجز لتقييده. والآن، إذا نظرنا إلى إيطاليا، مسرح التغييرات التي أشرت إليها، فسوف نلاحظ أنها أرض بلا حصون أو أي دفاعات أخرى، لأنها كانت محمية بقوات مناسبة، كما هي الحال في ألمانيا وفرنسا وأسبانيا، فإن هذه الفيضانات ما كانت لتنتج مثل هذه التغييرات الهائلة، أو ما كانت لتحدث على الإطلاق. يكفي أن نقول هذا القدر عن مقاومة القدر بشكل عام.

لا أريد الإسهاب في التفاصيل، لكنني أود أن أشير إلى السبب الذي يجعلنا نرى أميرًا يتولى السلطة بأمان في يوم ما ثم يُطاح به في اليوم التالي، رغم عدم حدوث أي تغيير في شخصيته أو سلوكه. وأعتقد أن هذا يرجع في المقام الأول إلى الأسباب التي شرحتها بالتفصيل منذ فترة طويلة . أي إلى حقيقة مفادها أن الأمير الذي يعتمد كليًا على القدر سوف يفشل عندما يتغير قدره. إن هذا يرجع أيضًا، في اعتقادي، إلى حقيقة مفادها أن الأمير يكون ناجحًا عندما ينسجم

أسلوبه في التصرف مع طبيعة العصر، ويكون فاشلًا عندما لا يكون أسلوبه في التصرف منسجمًا مع نغمة عصره. ونلاحظ أن الناس يسعون إلى تحقيق الغايات التي يصبون إليها، أي المجد والثروة، بطرق مختلفة. فنرى أحدهم حذرًا بينما يكون الآخر متهورًا، ويلجأ أحدهم إلى العنف بينما يعتمد الآخر على الحيلة، ويتصرف أحدهم بصبر بينما يفعل الآخر العكس؛ وكل منهم يصل إلى هدفه من خلال طريق مختلف. ونلاحظ أيضًا أنه من بين رجلين يتوخيان الحذر، سيحقق أحدهما هدفه بينما لن يحققه الآخر، أو أن كليهما سيحققان أهدافهما بطرق مختلفة، أحدهما بالحذر والآخر بالتهور. والسبب وراء ذلك ليس سوى طبيعة العصر الذي قد تصلح فيه هذه الأساليب السلوكية أو لا تصلح له. وهذا، كما قلت، هو الذي يفسر كيف أن رجلين يستخدمان أساليب مختلفة سيحققان النتائج نفسها، ورجلين آخرين يستخدمان أساليب مماثلة سيحققان نتائج متناقضة . ينجح أحدهما ويفشل الآخر.

وهذا يفسر لنا أيضًا عدم ثبات الرخاء. فإذا كان الإنسان حذرًا صابرًا في العمل، وكان العصر مناسبًا لهذا النوع من السياسة، فإنه سوف ينجح. ولكن إذا تغيرت الأوقات والظروف، فإنه سوف يفشل، لأنه لن يغير سياسته. ولا يوجد رجل حكيم إلى الحد الذي يجعله قادرًا على التكيف مع تقلبات الزمن، لأنه لا يمكن لأحد أن يتصرف على عكس ما تميل إليه الطبيعة، ولأنه لن يقنع أبدًا بالتخلي عن أسلوب معين، لأنه نجح سابقًا في اتباع ذلك الأسلوب. وبالتالي، عندما

تتطلب الأوقات ذلك، فإن الرجل الحَذِرْ لن يعرف كيف يتصرف بتهور وسوف يُطاح به. ولكن إذا كان قادرًا على تكييف طبيعته مع الأوقات والظروف المتغيرة، فإن أقداره لن تتغير.

كان البابا يوليوس الثاني يتصرف بتهور في كل ما يقوم به، فقد وجد أن العصر والظروف مناسبان جدًا لهذا الأسلوب في التصرف، لدرجة أنه كان دائمًا ما يلقى النجاح. ولنتأمل هنا حملته الأولى ضد بولونيا عندما كان السيد جيوڤاني بينتيفوجلي ما يزال على قيد الحياة. لم يعجب هذا الأمر أهل البندقية؛ كما لم يعجب أسبانيا. كانت المفاوضات ما تزال جارية بشأن هذه القضية مع فرنسا. ومع ذلك، فقد بدأ الحملة بشراسة وسرعة، وقادها بنفسه. وقد أدى هذا التصرف المفاجئ إلى تثبيط البنادقة وأسبانيا عن التحرك، أحدهما بسبب الخوف والآخر لأنه كان يأمل في استعادة الأراضي المفقودة لمملكة نابولي. كما كان له تأثير في توريط ملك فرنسا، الذي رغب في مساعدة البابا في هزيمة البنادقة، وخلص إلى أنه لا يستطيع حرمانه من القوات دون أن يتسبب له في أذى واضح. وهكذا نجح البابا يوليوس بفعله المتهور في تحقيق ما لم يكن بوسع أي بابا رصين أن يحققه بكل ما أوتي من حكمة وحذر. ولو كان قد أرجأ رحيله عن روما إلى أن تستقر الأمور، كما كان ليفعل أي بابا آخر، لما نجح قط، لأن ملك فرنسا كان ليقدم ألف عذر، وكان الآخرون ليقدموا ألف تهديد لإحباط المشروع .

ولن أتحدث عن مغامراته الأخرى، لأنها كانت كلها متشابهة، وكلها نجحت نجاحًا باهرًا. وقد وفرت عليه حياته القصيرة أي تجارب معاكسة. ولو كان الزمن الذي عاش فيه لابد فيه من الحذر، لكان ذلك سببًا في سقوطه، لأنه لم يكن ليتخلى أبدًا عن تلك الأساليب التي تميل إليها طبيعته.

لذلك، بما أن القدر يتغير بينما يظل البشر ثابتين في أساليب سلوكهم، أستنتج من ذلك أن الرجال سوف ينجحون طالما كان السلوك والقدر منسجمين، وسوف يفشلون عندما لا يكون هذان العنصران في وئام.

أما عن رأيي أنا الشخصي، فأعتقد بالتأكيد أن التهور أفضل من الحذر، لأن القدر كالمرأة، تُضرب بالسِّياط لتمشي على الصراط، والمألوف والمعروف أنها تستسلم للجرأة أكثر من الحسابات الباردة. كما أنه يشبه المرأة في شيء آخر، ذلك أنها تفضل الشباب دائمًا لأنهم لا يميلون إلى الحذر بقدر ما يميلون إلى العدوانية والجرأة في السيطرة عليها .

متى يظهر موسى جديد في إيطاليا؟

٢٨

طرد البرابرة من إيطاليا

بعد أن فكرت مليًا في كل ما ناقشناه، سألت نفسي عمَّا إذا كانت الظروف الحالية في إيطاليا مواتية لظهور كرامة أمير جديد، وما إذا كانت الظروف مناسبة لرجل حصيف حكيم يمكنه تشكيل هذه الظروف بحيث يفوز بالشرف لنفسه والرفاهية لشعبها!

وقد توصلت إلى أن الظروف كلها تصب في صالح الأمير، لدرجة أنني لا أستطيع أن أفكر في وقت أكثر ملاءمة لهذا الغرض .

وكما ذكرت لك من قبل، إن التاريخ ليستولد البطل من قلب المحنة؛ فإذا كان لا بد من أن يكون بنو إسرائيل في عبودية مصر قبل أن يخرج من بينهم موسى لإظهار براعته، وإذا كان لا بد من أن يضطهد الميديون الفرس قبل أن يتمكن كورش من إظهار عظمة روحه، وأن يشب رومولوس على لبن ذئبة في مملكة الحيوان لكي ينبثق في ظلام الأرض نور إيطاليا، وإذا كان لا بد من تشتت الأثينيين قبل أن يتمكن ثيسيوس من إظهار تميزه، فقبل أن يتم الكشف عن براعته الروحية الإيطالية في الوقت الحاضر، كان لا بد من إرجاع إيطاليا إلى حالتها المزرية الحالية، أكثر استعبادًا من العبرانيين، وذلولًا أكثر من الفرس، وأكثر تشتتًا من الأثينيين، بلا قائد،

ومضطربة، ومهزومة، ومسلوبة، ومكسورة، ومداسة، وتخضع لكل أنواع الأذى .

ورغم أننا رأينا بأعيننا بصيص الأمل في رجل أرسله الرب ليكون لها الفداء، إلا أننا رأينا بعد ذلك كيف رفضه القدر في النقطة الحرجة لمشروعه[1]. وها هي إيطاليا، التي أصبحت بلا حياة تقريبًا، تنتظر الشخص الذي يأتيها كالنبوءة ليشفي جراحها، ويشفي قروحها التي طال أمدها، ويقيم صلبها ويخرج الفجر بيديه من براثن الليل البهيم ويضع حدًا لنهب لومبارديا، ويفرض الجزية على نابولي وتوسكانيا. انظر كيف تصلي إيطاليا للرب في الشفق والغسق كي يرسل لها من ينقذها من وقاحة البربر وقسوتهم، وتأمَّل يا سيدي كم هي متعطشة للالتفاف حول أي راية لو وجدت فقط من يمتلك القوة ليرفعها عاليًا.

وليس في وسع إيطاليا أن تنظر بكل آمالها وأحلام أبنائها إلى مكان أفضل من بيتكم العظيم الموقر الذي، بفضل ما حباه الرب والكنيسة من مزايا وثروات، يمكنه أن يرفع الراية ويصل بها إلى الغاية. ولن تكون المهمة صعبة عليك يا سيدي إذا وضعت أمام عينيك كل ما ذكرته لك للتو، وأن ترنو إلى حياة الرجال الأفذاذ الذين صنعوا أمجادهم في ظروف أقل بكثير من الوفرة المناسبة الحالية، وعلى الرغم من أنهم كانوا رجالًا نادرين وغير عاديين، إلا أن سيدي،

[1] لا شك أن الإشارة هنا للدوق بورجيا.

إن لم يفقهم عظمة، ليس أقل منهم رتبة في سلم المجد والسؤدد. وما كانت مهمتهم أعدل ولا أسهل من مهمتك، وما زادهم الرب بفضل حرمك إياه، هناك عدالة عظيمة في قسمة المواهب بينكم. أو كما قال المؤرخ الإيطالي ليفي التاسع: "الحرب الضرورية هي حرب عادلة، وحمل السلاح واجب مقدس حين لا يكون الأمل إلا في حمله."

كل شيء جاهز لميلاد البطل المقدس، وحيثما كان الاستعداد عظيمًا فلا يمكن أن تكون هناك صعوبة كبيرة، فالأرض ممهدة والشمس ساطعة، وطالما ستحاكي النماذج التي اقترحتها عليك، ووضعتها نصب عينيك فالنجاح حليفك والرب معك. لقد رأينا عجائب صنع الله بأعيننا وقلوبنا وأدركنا معجزات لا مثيل لها، فقد انشق البحر وأمطرت السماء المَن والسَّلوى وارتفع الجبل عن الأرض وإن من الصخور لما يشقق فيخرج منه الماء[1]. أما الباقي فيجب أن تقوم به بنفسك. فالرب لا يريد القيام بكل شيء بنفسه حتى لا يحرمنا من إرادتنا الحرة ومن ذلك الجزء من المجد الذي ينتمي إلينا.

والأعجب من كل هذا أن الإيطاليين الذين أشرنا إليهم آنفًا قد فشلوا في تحقيق ما يمكن أن نأمله من بلادكم، كأن البراعة العسكرية

---

[1] يستند ميكيافيلي إلى الأحداث المذكورة في سفر الخروج ١٤-١٧. وفيه أن السحابة المذكورة أرشدت بني إسرائيل وأظلتهم في رحلتهم البرية.

الإيطالية قد انقرضت في العديد من الثورات وفي العديد من المغامرات العسكرية السابقة.

كل هذا يرجع إلى حقيقة مفادها أن الطقوس القديمة لم تعد مُجْدِية، وليس هناك من هو قادر على وضع أساليب جديدة لصناعة المجد. ولا شيء يشرف الرجل الذي وصل إلى السلطة حديثًا أكثر من يفرض طقوسه وأساليبه الجديدة التي يوجدها بنفسه. ومثل هذه الأشياء، عندما تكون ذات أساس متين ومؤثرة في نطاقها، تكتسب الاحترام والإعجاب؛ وفي إيطاليا لا يوجد نقص في المادة التي تنتظر بصمة أصابع البطل الجديد لتشكيلها.

وإن الفئة القليلة من الرجال لتغلب فئتين عندما لا يفتقر قادتهم إلى صفات البطولة. ويُظهِر الأفراد قدرات قتالية عظيمة عندما لا يفتقر قادتهم إلى هذه الصفات. تأمل المبارزات والمعارك التي يشارك فيها عدد قليل من الرجال الإيطاليين ولاحظ مدى تفوق الإيطاليين في القوة والرشاقة والمهارة. ولكن عندما يشاركون بالجيوش فإنهم لا يظهرون بشكل جيد. وهذا يرجع إلى ضعف قادتهم. فالقادة الأكْفَاء لا يُطاعون، ويظن الجميع أن القادة الضعفاء أكْفَاء لأن أحدًا لم يتمكن حتى الآن من التميز بوضوح عن القادة الآخرين في المهارة والثروة. وكانت النتيجة أنه على مدى فترة طويلة من الزمن، وفي الحروب العديدة التي خاضتها إيطاليا في العشرين عامًا الماضية، كان أداء كل جيش إيطالي مُشارِك في تلك

الحروب سيئًا. وقد ظهر أول دليل على ذلك في تارو، ثم في ألساندريا، وكابوا، وجنوة، وبولونيا، وميستريا.

ففي نهر تارو، الذي دارت على ضفافه معركة فورنوفو في عام ١٤٩٥، اخترق الجيش الفرنسي صفوف القوات الإيطالية ونجح في الهروب من شبه الجزيرة. أما ألساندريا وكابوا فقد نهبهما الفرنسيون في عامي ١٤٩٩ و١٥٠١ على التوالي. وفي جنوة، بعد الإطاحة بحكومتها الأرستقراطية على يد عامة الناس في عام ١٥٠٦، اضطرت المدينة إلى الاستسلام للفرنسيين في العام التالي. وبولونيا، تخلى عنها المندوب البابوي المسئول عن دفاعها في عام ١٥١١ للقوات الفرنسية المقتربة. أما ميستري، فقد أحرقتها القوات الأسبانية التابعة للرابطة المقدسة في عام ١٥١٣ .

لذلك، إذا كانت أسرتكم الموقرة ترغب في محاكاة الرجال العظماء الذين أنقذوا بلادهم، فيجب عليكم قبل كل شيء أن تزودوا أنفسكم بأفضل القوات وخاصة القواد، باعتبارهم الأساس الحقيقي لكل مشروع؛ لأنه لا يمكن أن يكون هناك جنود أكثر ولاءً أو صدقًا أو أفضل من هؤلاء. وإذا كان كل منهم فعالًا بشكل فردي، فسوف يكونون أكثر فعالية كوحدة عندما يرون أنفسهم تحت قيادة أميرهم، الذي يفضلهم ويكرمهم. ومن ثم فمن الضروري التخطيط لامتلاك مثل هذه القوات حتى تتمكن الشجاعة الإيطالية من الدفاع عنا في وجه البرابرة.

ورغم أن المُشاة السويسرية والأسبانية تعتبران من القوى الهائلة، فإن كل منهما يعاني من نقطة ضعف من شأنها أن تمكن نوعًا ثالثًا من المُشاة ليس فقط من مواجهتهما بل والتغلب عليهما بثقة. فالإسبان لا يستطيعون تحمل هجمات الفرسان، في حين يخشى السويسريون أي هجوم عنيد مثلهم. وعلى هذا فقد لوحظ، وستثبت التجربة ذلك، أن المُشاة الأسبانية لا تستطيع الصمود في وجه هجوم الفرسان الفرنسيين، وأن المُشاة السويسريين يمكن أن يُهزموا على يد الإسبان. ورغم أن التجربة لم تثبت في الواقع صحة هذا الادعاء الأخير، إلا أنه كان هناك تلميح إلى ذلك في معركة رافينا، حيث واجهت المُشاة الأسبانية الكتائب الألمانية، التي تنتمي إلى نفس النوع من المُشاة السويسرية.

وهناك، بفضل رشاقة حركتهم وقوة ترساناتهم، اقتحم المُشاة الإسبان مشاة الألمان ذوي الرماح الطويلة وهاجموهم بكل جسارة، ولم يتركوا لهم سبيلًا للانتصار. ولو لم يطردهم الفرسان الألمان، لكان الإسبان قد قتلوهم جميعًا .

وبعد أن أدركنا عيوب هذين النوعين من المُشاة، يمكننا أن نبتكر نوعًا جديدًا يقاوم قوات الفرسان ولا يخاف من المُشاة الآخرين. ويمكن تحقيق ذلك من خلال ابتكار أسلحة جديدة وتغيير التشكيلات العسكرية. إن مثل هذه الأشياء، إذا تم تقديمها الآن، فستمنح الشهرة والعظمة للأمير الجديد.

إن هذه الفرصة لا ينبغي أن تفوت، حتى تتمكن إيطاليا بعد كل هذا الوقت الطويل من العثور على مُخلِّصها. لا أستطيع أن أصف مدى الحب، ومدى التعطش للانتقام، ومدى الولاء الراسخ، ومدى الحنان، ومدى الدموع التي سيُستقبَل بها في كل تلك المقاطعات التي تحملت هذه الجحافل الأجنبية. كل الأبواب ستفتح في وجهه، وكل الأذرع ستُفتح لاحتضانه، وكل القلوب ستدعو أن يباركه الرب، والناس لن يحرموه طاعتهم، وسوف تُطوى الأرض تحت قدميه طيًا.

فماذا ننتظر يا سيدي؟ من ذا الذي قد يعارضكم؟ وأي إيطالي قد يمتنع عن الولاء؟ إن هذه الهيمنة البربرية تفوح منها رائحة كريهة في أنوف الجميع. فليتولَ بيتكم المُوقَّر هذه المهمة، إذن، بتلك الجرأة وبالأمل الذي يُحفَظ في المشاريع العادلة، حتى يتسنى لهذه الأمة أن ترقى تحت لوائكم، وحتى تتحقق تحت رعايتك الكلمات التي كتبها بترارك:

"في حربنا المجيدة على البربر، سوف تنقض فضيلة إيطاليا على الهمجية. وفي وقت قصير، سوف ينتصر الفصيل الأصيل على الهجين، وسيثبت الإيطاليون عراقة الدماء التي تجري في أوردتهم".

سان كاسيانو

نيكولو دي برناردو ميكياڤيلي

إن الإسهام الرئيسي الذي قدمه ميكياڤيلي للفكر السياسي يكمن في تحريره للفعل السياسي من الاعتبارات الأخلاقية.

خاتمة

من المفارقات العجيبة أن ميلاد كتاب الأمير - الدليل الكلاسيكي لسياسة البطش- تزامن مع انهيار الحياة السياسية لمؤلِفه والفشل العملي لابتكاره العسكري الأكثر شهرة، فقد كتبه في مرحلة الأفول.

عندما انتُخِب بيير سوديريني في عام ١٥٠٢، أصبح ميكياڤيلي واحدًا من أكثر مساعديه ثقة. وقد كُلِّف بمهام مهمة في إيطاليا وخارجها. وتدل التقارير المطولة التي قدمها في أداء هذه المهام على فطنته كمراقب، وسرعته وثباته في تحديد مركز القوة في أي موقف سياسي ودقته في تقييم قوتها، ولكنه كان يفتقر إلى المهارة في لعبة الدبلوماسية بين رجل ورجل.

ولعل أعظم لحظاته كانت في عام ١٥٠٩، عندما نجح الفلورنسيون في إخضاع مدينة بيزا بعد كفاح دام خمسة عشر عامًا. والفضل الأكبر في هذا الإنجاز يعود إلى ميكياڤيلي. فرغم أنه لم يكن رجلًا عسكريًّا بأي حال من الأحوال، إلا إنه كان في واقع الأمر مسئولًا عن الحصار البري والبحري الذي أدى إلى استسلام بيزا. فضلًا عن ذلك فإن القوات المدنية التي تولت إدارة العملية كانت تتلقى التدريب تحت إشرافه. وفي هذه المناسبة أثمرت قناعته، التي تتردد في كل كتاباته السياسية تقريبًا . بأن الدولة السليمة لا بد أن تعتمد على

قوات مواطنيها فقط في الحرب. ولكن كل ذلك اختلفَ بعد ثلاث سنوات في براتو، فتم القبض على سوديريني وعوقب بالنفي.

وفي أوائل عام ١٥١٣، اشتبه في أن ميكياڤيلي متورط في مؤامرة للإطاحة بحكومة ميديتشي. فاعتقل وعذب بالجلد والإهانة والنفي، ثم أطلق سراحه بعد فترة وجيزة، وثبتت براءته بشكل مرض .

كان من المفترض أن تدمر هذه الحادثة أي أمل متبق في عودته السريعة إلى السياسة في ظل الحكام الجدد، ولكن كتاب "الأمير" نفسه يشكل دليلًا كافيًا على أن هذه الحادثة لم يكن لها أي تأثير من هذا القبيل.

انسحب ميكياڤيلي إلى المزرعة الهزيلة التي تركها له والده بالقرب من سان كاسيانو. هناك، كان الفقر يقلق حياته. وكان الكسل القسري في البيئة الريفية لهذا الرجل المضطرب البالغ من العمر ثلاثة وأربعين عامًا عبئًا جديدًا. طوال ثلاثة عشر عامًا من خدمته كان موظفًا رفيع المستوى. زار بعض نقاط التوتر الرئيسية في عصره ومثل الجمهورية في مهام صعبة في فرنسا وألمانيا وروما وفي بلاط أمراء إيطاليا الصغار. لقد تعامل مع بعض الشخصيات البارزة في عصره، وبعد أن كان من المُحرِّكين والمؤثرين في عالم السياسة، أصبح كل عمله أن يرعى مزرعة عربات جر الخيل.

كتب في ديسمبر ١٥١٣ رسالة يقول فيها لأحد أصدقائه:

"أقضي النهار بين البهائم والروث، أحرث الأرض وأقطع الأخشاب، وعند حلول الليل أعود إلى البيت وأدخل مكتبي. وهناك على العتبة أخلع ملابسي المُلطخة بالطين، ثم أرتدي ثيابًا ملكية وأدخل مكتبتي لأقابل رجال غابر الزمان، حيث أستقبلهم بحفاوة، أصير واحدًا منهم. لا أخجل من التحدث معهم والاستفسار عن دوافع تصرفاتهم؛ فيجيبونني بلطف. ومعهم، أتناول الطعام الذي يخصني وحدي. ذلك هو العمل الذي وُلدت من أجله. وهكذا لمدة أربع ساعات لا أشعر بأي انزعاج؛ أنسى كل المشاكل؛ لا يخيفني الفقر، ويفقد الموت هيبته. وبما أن دانتي يقول إنه لا يمكن أن تكون هناك معرفة دون تدوين، فقد سجلت ما اكتسبته من محادثاتهم وألفت كتابًا صغيرًا ناقشت فيه ماهية الإمارة وأنواعها، وكيف يتم كسبها، وكيفية الحفاظ عليها، ولماذا يتم فقدها. كل ما أصبو إليه أن أتوجه به إلى الرائع أمير دي ميديتشي. لن أريد أن أهدر وقتًا أكثر هنا. لا يمكنني الاستمرار على هذه الحقارة. أتمنى أن يبدأ اللوردات من آل ميديتشي في استغلالي، حتى لو في مركز وضيع، إذا فشلت في كسب ثقتهم، فلن ألوم إلا نفسي. بعد قراءة هذا السفر، سيعلمون أنني لم أنم أو أضيع الخمسة عشر عامًا التي كنت منخرطًا فيها في دراسة فن الحكم، يجب عليهم أن يقدروا رجلًا يتمتع بخبرة كبيرة. أما فيما يتعلق بولائي، فلا ينبغي أن يكون هناك شك فيه، سأكون وفيًّا لرب عملي. لا يمكنني تضييع هذه الفرصة. أي شخص كان مخلصًا

وصادقًا كما كنت لمدة ثلاثة وأربعين عامًا لا يمكنه تغيير طبيعته، وفقري هو الدليل على صدقي وصلاحي.." .

وقد اتهمه بعض النقاد بالانتهازية الفظّة والنفاق لأنهم لم ينسوا تضامنه مع الحكم الجمهوري وخدمته الطويلة لحكومة سوديريني. لكن مثل هذه النظرة هي تبسيط مفرط لمجهوده. فهي تتجاهل روح الكتاب والمزاج السياسي في ذلك العصر. وإذا افترضنا أن ميكياڤيلي اختار أن يلعب دور محامي الشيطان لمجرد الحصول على وظيفة، فإننا سنظلم فرادة الأفكار التي تملأ صفحات الكتاب، ذلك أن الفكر يتوهج تحت المنطق المزعج والمرعب في كثير من الأحيان. وبعيدًا عن كونه تدريبًا بارعًا على الانتهازية، فإن كتاب "الأمير" يمثل جهدًا يائسًا لإيجاد علاج للظروف البائسة التي سقطت فيها بلاده. وقد قال ميكياڤيلي:

"إنني أحب بلدي أكثر من روحي، وكتابي يعكس هذه الحقيقة.".

لا شك أن الفقر والبطالة كانا يثقلان كاهله. ولكن السياسة كانت حياته، "الطعام الذي أمتلكه وحدي"، على حد تعبيره، "والشيء الذي وُلِدت من أجله". وكان حرمانه من النشاط السياسي أشبه بحرمانه من الهواء .

إن الإسهام الرئيسي الذي قدمه ميكياڤيلي للفكر السياسي يكمن في تحريره للفعل السياسي من الاعتبارات الأخلاقية. فبالنسبة له، لم تكن الضرورة السياسية مرتبطة في الأساس بالأمر الأخلاقي. وهذا لا

يعني أنه كان من دعاة اللا أخلاقية. فهناك أدلة كافية، في الواقع، على أنه كان يعتنق آراءً أخلاقية تتفق إلى حد كبير مع آراء معاصريه. ولكن في حين كان المُنظِّرون السياسيون يبنون أفكارهم على أسس لاهوتية وأخلاقية، ويحكمون على المؤسسات والحكام وفقًا لنموذج ما ينبغي أن يكون عليه الحال، فقد أكد ميكياڤيلي أن الدين والأخلاق ليس لهما مكان في الساحة السياسية إلا بقدر ما يخدمان أغراضًا سياسية واقعية. وبالنسبة له، فإن قيمة المؤسسة أو الحاكم لا تتحدد إلا بالنجاح العملي في اكتساب السلطة والحفاظ عليها .

"أنا أبتعد عن القواعد التي وضعها الآخرون"، يقول في الفصل الخامس عشر. "ولكن بما أن نيتي هي كتابة شيء مفيد... أرى أنه من الأفضل الالتزام بالحقيقة العملية للأشياء بدلًا من الأوهام. لقد تخيل العديد من الرجال جمهوريات وإمارات لم تكن موجودة على الإطلاق. ومع ذلك فإن الطريقة التي يعيش بها الرجال بعيدة كل البعد عن الطريقة التي ينبغي لهم أن يعيشوا بها لدرجة أن أي شخص يتخلى عمَّا هو موجود من أجل ما يجب أن يكون فإنه يسعى إلى السقوط بدلًا من الثبات."

لا شك أن التاريخ حافل بحكام كانوا يتصرفون في كثير من الأحيان، قبل ظهور ميكياڤيلي بفترة طويلة، دون أي اعتبار للضرورات الأخلاقية. ولكن ميكياڤيلي لم يبق له إلا أن يؤكد أن مثل هذه التصرفات كانت متوافقة مع المبادئ المشروعة للسلوك السياسي.

ودون أي مبرر نظري، لم يتردد هؤلاء الرجال في إسناد تصرفاتهم إلى معايير سياسية بحتة. لقد قدم ميكياڤيلي التبرير الذي تطلبته أفعالهم ـ وأفعال الحكام اللاحقين ـ بإعلانه في الواقع أن ممارسة فن الحكم بنجاح تتطلب التخلي عن الأخلاق التقليدية واستبدالها بما أطلق عليه الكتُّاب اللاحقون "منطق الدولة". وعلى هذا فقد أسس لانقسام تام بين السلوك السياسي والأخلاق الشخصية ـ وهو الانقسام الذي يطارد ضمير البشر حتى يومنا هذا.

ينبغي للقارئ المعاصر أن يحترس من خطأ قراءة كتاب الأمير وكأن مؤلفه كان على علم بالأنظمة الفلسفية والعقائدية المتعلقة بالدولة والمجتمع والتي لم تكن موجودة في عصره. فإن فعل ذلك، فسوف يبحث عن إجابات لأسئلة لم يفكر فيها ميكياڤيلي قط. والواقع أنه من الأهمية بمكان أن نتذكر أن ميكياڤيلي لم يكن مُفكرًا منهجيًا. ولم يكن منشغلًا بمشكلة إيجاد نظرية سياسية كاملة ومتماسكة. وكان هدفه في كتابه "الأمير" وصف قواعد سياسة القوة استنادًا إلى تحليله للتاريخ. وهو التحليل الذي كان، على الرغم من عيوبه، يمثل خطوة بعيدة في فهم وتفسير الأحداث المتضاربة في عصره. وساعد أيضًا في فهم الأحداث التي وقعت في العصور اللاحقة.

إن أحد أهم العناصر المميزة لفكره في هذا العمل هو قربه من الأحداث. فهو لم يكن عالمًا، ولم يكن يرى المعرفة غاية في حد ذاتها. بل كانت المعرفة بالنسبة له بمثابة نقطة انطلاق للعمل. ولا

شك أنه كان يؤطر في تحليله للرجال والأحداث أساسًا لبرنامج، أو مخطط من المحتمل أن يتبناه أحد الحكام ويبني عليه .

وسوف يكتشف القارئ المتشكك أن حجج ميكياڤيلي قد لا تكون منطقية ولا متسقة أحيانًا، وأن الموضوعية ليست حقيقية دائمًا. وسوف يكتشف أن العمل ليس مجرد توليفة من الاستنتاجات. بل إنه أيضًا عمل خيالي. وعلى النقيض مما قاله بعض منتقديه، كتاب "الأمير" ليس عمل رجلٍ تجري في عروقه مياه جليدية. بل إنه عمل رجل نظر إلى حطام التاريخ بقلق في قلبه وأصر على أنه من الممكن إيجاد حل، ليس في الغيب أو عند اكتمال الزمن، بل الآن. ويتطلب مثل هذا الحل تدابير يائسة وقوة وشجاعة ومهارة وظروفًا مواتية.

وكاتب الأمير -كما نراه، لم يبذل جهدًا كبيرًا في التنقيح، وهذه -على نحو غريب- إحدى فضائله، فأسلوبه خال من زخارف البلاغة والاستطراد، يكشف عن عقل مملوء بالأفكار، وهو عقل لا يطيق كلمات مبهمة المعنى والظلال في الأفكار، ولكنه حاضر البديهة جاهز للسخرية، منجذب بشكل لا يُقاوم إلى التناقضات الحادة والصور الصلبة والوتيرة السريعة، بل وفي بعض الأحيان يبدو قلم الكاتب في خطر من خسارة معركته لمواكبة تدفق الأفكار، ولذلك لا تسير الجمل أحيانًا بسلاسة ويسر، وقد نجد الأبنية السردية مزعزعة.. وهي عيوب طفيفة قياسًا إلى فرادة التناول. ورغم افتقارها إلى الرشاقة، فإن التعبير يظل واضحًا ومتوافقًا مع طبيعة فكر

ميكياڤيلي ، رغم أننا نتمنى دائمًا أن تكون الكتابة أكثر دقة مبنى ومعنى .

"دانييل برونو"

وأخيرًا

للأسف.. وربما لحسن الحظ! لا يوجد دليل قاطع على أن الأمير لورينزو دي مديتشي[1] قد قرأ الكتاب بالفعل، وليست هناك وثائق تاريخية مؤكدة تشير إلى أنه اطَّلع عليه. لكن المؤكد أن أمير عائلة مديتشي مات بعد فترة قصيرة من كتابة هذا الكتاب، مما يؤكد أنه حتى لو قرأه فلم ينتفع بشيء مما فيه...

لكن كثيرًا من الطغاة قرأوه بعد ذلك، أحدهم سقط وفر هاربًا كالجرذ اليوم، رغم أن اسمه في سجل الطغيان "أسد".

وإلى وقتنا هذا، ما يزال إرث ميكياڤيلي الفلسفي في حيز الغموض، لا يوجد حتى الآن رأي راسخ مستقر فيما يتعلق بأي جانب من جوانب فلسفته، ولا يردد الناس إلا شذرات من أقواله –معظمها مقتطع من سياقه. ويختلف المحللون بشأن نيته الإجمالية، وحالة صدقه وتقواه ووحدة أعماله ومحتوى تعاليمه.. لكن الذي لا شك فيه أن تأثير كتاب "الأمير" لم يقتصر على عصره وحسب، بل امتد ليصبح مرجعًا أساسيًا في الفكر السياسي عبر القرون. فقد شكل هذا الكتاب نقطة تحول في فهم العلاقة بين القوة والأخلاق، حيث قدم رؤية واقعية وصارمة للسلطة السياسية.

---

[1] يعرف أيضًا باسم لورينزو الثاني، وهو ابن جوليانو شقيق لورينزو الرائع.

كتب ميكيافيلي كتاب الأمير في الفترة ما بين ١٥١٣ إلى ١٥١٦.

ولم يتم نشر الكتاب إلا بعد وفاته بستة عشر عامًا، أو خمسة أعوام على الوجه الأرجح.

هشام عيد

القاهرة ٨ ديسمبر ٢٠٢٤

المحتويات

مقدمة المترجم ٥
إهداء ١٥
١ تأسيس الإمارات وطرق حكمها ١٧
٢ الإمارات الموروثة ١٩
٣ الإمارات المختلطة ٢١
٤ خلفاء الإسكندر ٣١
٥ السيطرة على الإمارات الحرة ٣٧
٦ الإمارات المكتسبة بالسلاح والمهارة ٤١
٧ الإمارات المكتسبة بمساعدة القدر ٤٩
٨ ميزان القسوة ٥٩
٩ الإمارة المدنية ٦٧
١٠ كيف تُقاس قوة الإمارة؟ ٧٣
١١ الممالك الكنسية ٧٧
١٢ صفات المقاتلين ووسائل القتال ٨٣
١٣ القوات الموالية ٩٣
١٤ مهارات الأمير ١٠١

١٥ المدح والذم ١٠٧
١٦ البخل والسَّخاء ١١١
١٧ أيهما أفضل، أن تكون محبوبًا أم أن تكون مُهابًا؟.... ١١٥
١٨ حفظ العهود ١٢١
١٩ البغض والاحتقار ١٢٧
٢٠ أيهما أحق بالعناية: الجند أم الرعية؟ ١٣٣
٢١ نزع السلاح من الرَّعية ١٤٤
٢٢ القلاع والحصون ١٥١
٢٣ كيف يحظى الأمير بالوجاهة والتقدير؟ ١٥٥
٢٤ اختيار الوزراء ١٦١
٢٥ كيف تتجنب المـ -تملقين؟ ١٦٥
٢٦ لماذا أضاع أمراء إيطاليا إماراتهم؟ ١٦٩
٢٧ مقاومة القدر ١٧٣
٢٨ طرد البرابرة من إيطاليا ١٧٩
خاتمة ١٨٧
وأخيرًا ١٩٥